اقرأ

محمد العزب موسى

طرائف من الصحافة

دار المعارف بمصر

طرائف من الصحافة



إهـــــــداء٢٠٠٧

الأستاذ / عبد الغنى أبو العينين

جمهورية مصر العربية

محمد العزب موسى

طرائف من الصحافة

اقرأ ٥٦

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٥٦ — يوليه سنة ١٩٤٧



لـــكل زمان مضى آية ... وآية هذا الزمان الصحف
لسان البـــلاد ونبض العباد ... وكهف الحقوق وحرب الجنف
فيا فتية الصحف صبراً إذا ... نبا الرزق فيها بكم واختلف
فان السعادة غـــير الظهو ... ر وغير الثراء وغير الترف
ولكنها فى نواحى الضمير ... ر إذا هو باللؤم لم يكتنف
خذوا القصد واقتنعوا بالكفا ... ف وخلوا الفضول يغلها السرف
وروموا النبوغ فمن ناله ... تلقى من الحظ أسمى التحف
وما الرزق مجتنب حرفــة ... إذا الحظ لم يهجر المحترف
إذا آخت الجوهرى الحظ ... وظ كفلن اليتيم له فى الصدف
وإن أعرضت عنه لم يحل فى ... عيون الخرائد غير الخزف

أحمد شوقى بك

ظلت هذه المعانى تتردد فى نفسى وتثير فيها ألواناً مختلفة من الأحاسيس وصنوفاً متباينة من الوجدان وأخذت ألاحقها أنى كانت وتلاحقنى أنى كنت فالصحفيون ينظرون إلى مهنتهم نظرة

الصوفى إلى ربه وقد جرد نفسه من كل شىء وخلد إليه فى صومعته يصلى ويتعبد ويفنى فى ذاته وإن ثار يوماً على مهنته فانما ثورته مؤقتة وإن بعدِ عنها فالى حين. ثم لايلبث أن يعود فيلقى نفسه فى أحضانها يغسل بدنه من أدران الحياة الدنيا . ويطهر روحه فى تنور عالمه الأبدى .

قرأت أكثر من كتاب عن الصحافة . وعشت فى خدمتها وامتزجت بها علماً وعملا وتفاعلت واياها نفساً وحساً . فكانت تأخذنى فى قوة وعنف . فآثرتها على غيرها من فروع الحياة وفنون العيش .

كتاب واحد هز نفسى وأثار شعورى ووجدانى كتاب لهنرى ويكهام ستين . مهد فيه للكلام عن الصحافة بتقدمة روحية سلك فيها مذاهب الصوفيين يفنون نفوسهم فى قوة خارقة تهيمن على الكائنات والموجودات .

قرأت له « ليست الصحافة حرفة كسائر الحرف هى أكثر من مهنة . وهى غير صناعة . هى طبيعة من طبائع الموهبة . هى شىء بين الفن والعبادة . . .

« والصحافيون خادمون عموميون غير رسميين غرضهم الأول العمل على رقى المجتمع . . .

« إنهم رجالا ونساء ذوو عقول وملكات خاصة بهم ذوو غيرة

قلما يتباهون بها على نشر المعرفة المكونة . ذوو عزم على أن يقتحموا طاحون الصحيفة يتلمسون فيها منفذا يطلون منه على الجمهور ليقولوا له ما يعتقدون أن من حقه أن يعرفه .

« هؤلاء الصحافيون هم الصحافة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. فاذا حاولت صناعة الصحف الاستغناء عنهم والاعتماد على نفسها كمنشأة تجارية قصدها اغناء أصحابها أو حملة أسهمها فسيكون فى ذلك القضاء عليها كمؤسسة عامة . . .

« وهم مثاليون صلب القلوب ظروف عملهم عسيرة غالباً وواجبهم لاينتهى أبداً . ليسوا على العموم ذوى عقلية نفعية مهما تبلغ ضخامة الأرباح التى يرون الآخرين يستخلصونها من جهودهم . وإن رائحة حبر المطبعة لأزكى فى خياشيمهم من العطور النادرة . وأن منظر قصاصات التجارب « البروفات » ليكفى لينسيهم أنهم هم أنفسهم مسلوخو الكواهل كعبيد السفن فى العصور القديمة » . . .

« على أنهم يذكرون من حين إلى حين بالثلمة التى تفصل بينهم وبين مثلهم الأعلى وبين تحقيقه العملى فتعلمهم التجارب المتواترة أن صنعتهم قد تكون فى الواقع صناعة أو تجارة كما قد تكون مهنة حرة أو فناً أو رسالة . وأنها قد تكون كل هذه الأشياء على التوالى . وكل هذه الأشياء مجتمعة فى بعض الأوقات . . . »

هذه هي المهنة التي لها في نفسي بل في حسي أثر عميق سحيق أبعد عنها ثم أقترب وأدنو منها ثم أنصرف . فأنا من أمرها بين قبض وبسط وبين جذب ودفع ولست أذكر كيف أحببتها وهل حبي إياها وإيثارها على ما عداها عجز عن مزاولة غيرها من الحرف وهي متعددة وهل الحياة تضيق بأنسان يرغب في العيش حتى ليكرس حياته لها ويبلور آمالها ويركزها في هذة الدائرة الفنية الرائعة يخدمها باخلاص وإيمان لا يعرف ليومه حدوداً ولا لنهاره نهاية وينقله عام إلى عام ويفر منه إلى أقدار غير أنه يظل مقبلا على صناعته بل عبادته بجد وإخلاص .

نعم تلوح أمامه في الأفق غيوم ويحميه عن الدنيا ظلام ولكنها تتبدد جميعاً وتتقشع إذا ما وقع على نبأ فانه يدخل السرور على نفسه ويشع فيها البساطة والقناعة . وقد يلتقي الفكرة الضخمة فتهتز أعصابه وتتدافع ألوان المجد في نفسه إلى أن يتخذ مكانه من مكتب متواضع يفكر ويكتب وقد نهض أمامه إنسان يجمع من بين يديه ورقة تلو ورقة ثم يدفع بها إلى المطبعة فينسى أنه كان في قلبه هم . وفي نفسه ألم . أو أنه طاف في حاجة إلى إداء واجب جل أو تفه ثم يروح بعد ذلك ضارباً في أطوال الحياة وعروضها ساعة أو بعض ساعة يوماً أو بعض يوم . ثم يذاع في الناس مقاله فاذا الدنيا مقبلة عليه أو منصرفة عنه فقد يكون المقال الرصاصة

الأولى أو الأخيرة تزغرد فى جبهة القتال أما إن يسكت الألسنة أو ينهض على أثرها نضال يشحذ عزيمته ويمضى بقلمه يعمل به ذات اليمين وذات الشمال . لا يعرف خوفاً ولا رهبة لا يعرف الهزائم . بل يجد فيها طعماً مستساغاً يبدأ معركة جديدة . كأنه والحياة عدوان أو صديقان لا يملان من المعارك ولا يملان من الهمس والمناجاة يعيش من أجل الحرية لأن فنه حرية الحريات. يتغذى من كنوز مبدأ . والصحافى بلا مبدأ شجرة جرداء . لها هيكل محطم دون ظل ممدود .

* * *

على حافة النيل رست عائمة أسدلت ستائرها وترسلت منها أنوار باهتة وليست لى معرفة بها أو بساكنيها. وإنما تلقيت دعوة من صديق لنقضى بها سهرة حمراء .

دلفت إلى العائمة وهى ترقص على صفحة الموج فى حشرجة المحتضر. وما كدت أقطع فى طريقها خطوة حتى امتلأت أذناى بهمس هادئ رقيق . وملأت أنفى عطور صارخة . والقوم عديدون وغلبة المجلس للسيدات .

لم أكن أجمل الرجال وجهاً . ولا أرقهم عاطفة . ولا أملأهم جيباً .

غير أن العيون كانت ترنو إلى بنظرات وتتجه الوجوه نحوى

وعلى الشفات ابتسامات وكانت ربة الدار سيدة نصف . شامخة البناء . عيونها زرق وشعرها مسدل . تتدلى أمشاجاً فى صنعة وفن . وفى ثورة وكبرياء .

كانوا يتحدثون عن أنواع الشراب والأزياء وحفلات السباق والسهرات . وعن السياسة . وعن المال . وكنت أسمع فى شغف ليس له مظهر . أما حديث الأخلاق والمثل العالية فبعيد عن المجلس .

ألقيت نظرة على هذه الوجوه فألفيتها غريبة عنى بعيدة وإنما هناك صديق قابلته منذ أعوام فى باريس .

رجل مكتنز أبيض الوجه فيه حمرة تركية قديمة وشارب لعب به الشيب وشعر رأس تراكم عليه غبار الحياة . غير أن ثروة واسعة عريضة تسند الرجل وتشد أزره وكأنما تبعث فى شيخوخته المحطمة قوة وفتوة وجلست إلى جانبه فتاة رقيقة العاطفة فى عينيها بريق ولمعان يفيض وجهها بمعانى عالية تتألف منها صورة حية من صور السماء . وكل عباراتها ابتسام . وكل احتشامها ابتسام . وكل عبثها ابتسام وكأنها لم تخلق إلا لهذا الابتسام وكانت كل ابتسامة كتاباً مفتوحاً تقرأ فيه تاريخاً غير أنى أحسست نحوها دافعاً قوياً ينبعث من غيب مجهول وليس فى الوجود من قلب يتحدث إلى قلب .

كانت هناك قلوب ثلاثة . تتنافر وتتلاقى تتدافع وتتجاذب وكذلك ثلاث شخصيات تقوم فى ميادين الخجل فمن منها يبدأ الحديث ومن يبدأ الغزوة ولمن يكتب الانتصار .

قالت السيدة : أعتقد أننى رأيت السيد من قبل .

قلت : قد يكون ولكنى لا أظن .

قالت : لا رأيتك قبل اليوم .

قلت : قلت قد يكون ولكنى لا أظن .

غمزت بعين فيها ألم . وحب كسير .

قلت : لا أظن ولا أعتقد.فأنت صورة لا تنسى . فان كنت قد رأيتك . فمحال أن أنساك .

قالت : كلا رأيتك فى أكثر من مكان . وسمعتك تتحدث إلى أكثر من إنسان . كانوا جميعاً يقبلون عليك . وكانوا فى شوق إلى أن يسمعوا إليك . وكنت أعجب لأمر رجل يلتف حوله الناس جميعاً فى رضا وفرحة . ولست أدرى ماذا تصنع ولا بأى عمل تقوم . وقد رأيتك الليلة . فإذا بعيون تلاحقك .

ولم يترك صاحبنا هذه السيدة تذهب فيما هى ماضية إليه من حديث . وأجاب مختصراً الطريق « إنه واحد من الجورنالجية »

هذا قول ليس غريباً عنا نحن الصحفيين فنحن نسمع هذه الكلمة أكثر من مرة . وفى مناسبة وغير مناسبة . حتى اعتدناها .

وإننا لنطلقها على أنفسنا فى شىء من السرور والابتسام . ويظهر أن صاحبنا لم يصل إلى قصده فأثور أو أغضب . فسلك طريقاً آخر .

قال وهو يبتسم « أنا أعجب من أمركم أيها الأصدقاء . أنتم تعيشون عيشة تافهة . وتؤدون جهداً تافها . لا قيمة له فى الحياة ولا وزن . عشرات من أبناء آدم يتكاتفون على عمل ثم يباع جهدهم وإنتاجهم فى السوق بنصف قرش » .

ابتسمت وقلت « هذا حق . ولكننا لسنا عشرة ولا مائة ..وإنما عشرات المئات نتكاتف فى هذا الجهد . فأولئك الذين يقطعون الأشجار من الغابات الكثة . وأولئك الذين يصنعون منها قطعاً ثم يدفعونها إلى المصانع ثم تدار الآلات ثم يصبح الخشب ورقاً ثم يلف ثم تحمله القطارات والسفن ثم يوزع على الصحف إلى أن يصل آلاتها وعددها . وهناك ينتظره عشرات من بنى آدم يجمعون الأنباء ويحررون المقالات ويعدون الصور والإعلانات فأنت ترى أنهم عشرات المئات غير أن جهدهم لا يقدر بثمن . لأنه صورة من طبيعة السماء تهتز من خلاله عروش . وترتعش من بطشه فرائص الطغاة والمستبدين . وهو جهد فيه كثير من روح الله . ألم تر أن النبى حاولوا أن يقضوا عليه بسلطانهم . فهيأوا له قبراً . قد دفعهم هذا الجهد إلى الهاوية والحفرة فناموا فيها

واستقروا بين جنادلها . إنها بضاعة وإن اشتريت بنصف قرش فإنما صيغت من القلب والعاطفة وأنبل الأحاسيس » .

كانت السيدة تدور بعينيها وكأنها تريد أن أقضى على الصديق فى أول جولة وألا أترك له منفدا يفلت منه إلى الحياة كانت لبقة تريد أن أنتصر . ولست أدرى لهذه الحماسة الغريبة من سبب .

سألتنى ذات يوم ما هو المقال الأول الذى ظهر لك .

قلت: المقال الأول الذى ظهر لى لا أذكره ولا أنساه فقد ذهب مع الريح فى موكب الزمن الذى طوى مئات الأخبار والمقالات . وليس لواحد منها فى نفسى تاريخ مثل ما للمقال الأول .

المقال الأول صاحب لذة روحية ولذة فكرية أقمت له فى قلبى نصباً تذكارياً . لا أفرغ من عبادته ولا أنصب من الحج إلى ذكراه .

قالت : وكيف ؟

قلت : كنت فى الصفوف الأخيرة فى المدرسة الثانوية ووقع لى خاطر أخذت أعالج الكتابة فيه . ثم أرسلته عن طريق البريد إلى صحيفة مسائية ذات شهرة وصيت فى ذلك الحين وبعد ثلاثة أيام نشر الخاطر ولم تزد سطوره عن العشرين ومن سوء حظى أن حرفت الجريدة الاسم فضاعت لذة الفوز ولكننى جعلت أقرأ كل كلمة منه عشرات المرات وكأن العالم كله يقرؤه ولا يشغل

بال العالم سوى كاتب هذا المقال .

ثم بدأت أكتب قطعاً متناثرة بين آونة وأخرى . واعتمدت فى كثير من الحالات على الترجمة وحفلت بنوع خاص بتراجم شعراء العرب ورجال الأدب والسياسة وما كنت أجد صعوبة كبيرة فى هذا . ذلك أن المصادر متوفرة والفرصة مواتية أن لذة الاحساس باذاعة اسمى أخذت تضعف وقد أورثنى اذاعة اسمى ونشره من حين إلى حين اقلاق بال وازعاج خاطر . فبدأت أسمع نقداً لما أكتب دون أن يرحم الناقدون كاتباً حديثاً ناشئاً . وبدأ فريق من الكتاب يهاجمون آرائى ويذهبون فى نقدهم كل مذهب غير أن هذه الحالة شحذت فكرى . فبدأت أناضل وانتقلت المسألة من لذة النشر إلى لذة الكفاح ومناضلة القلم بالقلم والرأى بالرأى .

كنت أكتب المقالات وأبعث بها إلى إدارة الصحيفة عن طريق البريد كذلك . فقد كنت أخشى الصحافة وأتهيب رجالها والقائمين على أمرها والكتابة شىء والمحادثة الشفهية شىء آخر .

وكم من مرة حاولت زيارة إدارة الصحيفة غير أننى ما كنت أصل إلى بابها حتى أتراجع إلى الخلف . أتراجع إلى الخلف لأننى لست أقدر كيف يلقوننى ولا كيف يقابلنى أولئك الذين يعيشون فى برج عاجى لم تنل منهم ارستقراطية الحياة . بل إنهم

أذلوها وحاربوها وكانوا أبداً من المنتصرين

وذات يوم خطر لى أن أتناول موضوع الديانات وكيف تطورت . وقد بذلت فى سبيله جهداً كبيراً وعلقت على نشره أملا أكبر. وقلت بعقلى إن نشر هذا البحث سيكون بمثابة حجر الزاوية فى بناء مجد خالد رفيع. غير أنى كنت أقدر أن الصحيفة ستنكره لأمرين .

أولا — البحث جرئ والصحيفة رجعية .

ثانياً — طول البحث وضيق الصفحات وأن الكاتب لا يستأهل عناية من صحف ذلك الوقت وكانت تصدر فى أربع صفحات .

واتفقت مع نفسى على أن أمضى فى البحث دون أن أجعل لجرأته أثراً فى الإحجام . ورأيت من الخير والتيسير أن أوافى الصحيفة به حلقة بعد حلقة وكان أن أرسلت الجزء الأول وانتظرت موعد النشر. ومرت الأيام دون أن أفوز ببغية فأوفدت صديقا لى يسأل عن المقال وطلبت إليه أن يعمل على إعادته إلى كاتبه ما دام لم ينشر.

وانتظرت الصديق على مقهى مقابل لإدارة الجريدة . ومضت دقائق كأنها أجيال مظلمة يعيشها الإنسان فى طلب النور . ثم أقبل الصديق بعد حين وعلى فمه ابتسامة حملت من الغموض

والغبطة معنى من معانى الحياة الصادقة لا تتبين من خطوطها شعاع نور أو لسان ظلام .

ألقيت عليه نظرة متوسلة تنطق بكل ما يدور بنفس مضطربة فقال « قم واتبعنى » ثم أخذ بيدى وقصدنا إلى مبنى الجريدة ودخلنا مكتب رئيس التحرير . فوجدت رجلا لا يحمل على جسمه لحماً . وإنما عظم رقيق يكسوه جلد أبيض ووجه تجرى فى بياضه حمرة . وما كاد يرانى حتى أخذ يقبلنى قبلة أب بار بابن طالت غيبته ثم بعثه القدر فى ساعة الشدة وحين اليأس .

كان رئيس التحرير من أبناء الرعيل الأول الذين نالوا أجازة الليسانس فى الحقوق ثم آثر الصحافة عملا ومهنة وعبادة رغبة منه فى الكفاح فى سبيل الوطن واستقلاله .

مد يده إلى فى شوق ولهفة وسأل أين بقية البحث أجبت سيكون عندك غداً قال كلا بل اليوم بل الآن .

انصرفت ثم عدت فوافيته ببقية البحث .

كان هذا يوم ثلاثاء وفى يوم الخميس التالى ذهبت إلى مقهى كنا نجتمع فيه نحن تلاميذ المدارس المدنية وطلاب الأزهر من أبناء بلدى والبلاد المجاورة . ثم ظهرت الصحيفة ومن عجب أن يكون نداء الباعة إعلاناً عن البحث واسم صاحبه .

لو أنهم رفعونى إلى أسمى المناصب وألقوا بين يدى بمفاتيح

خزائن المال التي استوت شمعتها لقارون لما دخل السرور إلى نفسي وقلبي مثل ما كنت عليه في ذلك المساء .

ولما زرت رئيس التحرير لأشكره بادرني هو بشكري . وقال « يا بني لقد طبعنا يوم بحثك خمسة آلاف نسخة زيادة عن المقطوعية المقررة . وأن المتعهد قد طلب بعد ذلك أعدادا أخرى . وأنت منذ اليوم لك صفحة كاملة تصدر مساء كل خميس في الأسبوع فوفر نفسك على هذا . ولتكن أبحاثك دائماً دسمة على هذا الوجه . حرة كذلك . فان غايتنا أن نصل إلى عقول الشباب وعاطفة الشباب والمفتاح إلى عقول الشباب وعاطفة الشباب لا تكون إلا عن طريق الشباب نفسه » .

مضى الأسبوع مضنياً حقاً ومتعباً كذلك فكانت الأسئلة تترى على الصحيفة . من هو صاحب هذا البحث ؟ وكان رئيس التحرير حريصاً على أن يقدمني إلى الكبراء والعظماء . وكانوا يوجهون إلى الدعوة لتناول طعام الغذاء أو العشاء أو أن أقضي السهرة في مجالسهم وكنت لا أحسن الحديث . بين قوم تفاوتت بيني وبينهم الأعمار والمراكز . وفرقت بينهم تربية الحضر . وتقاليد الريف .

همس في أذني رئيس التحرير بأن عنده لي هدية . ثم سلمني مظروفاً مغلقاً . ولما انصرفت فضضته فاذا به عشرون جنيهاً .

عشرون جنيهاً أعز ثروة . وأخطر ثروة نلتها فى الحياة . لا قيمة لها من حيث المادة . ولكنها لا تقدر من حيث المعنى .

فى يوم الخميس التالى صدر بحث جديد عن طبائع الثورات ومميزاتها تحدثت فيه عن الناحية العلمية للثورات الخالدة فى التاريخ وعلى النواحى الوطنية والانفعالات التى تأثرت بها شعوب الأرض وأممها .

منذ هذا التاريخ . وأنا أحس باعثاً خفياً يثيرنى ويحركنى نحو الصحافة . وكم تمنيت أن تنتهى أيام المدرسة لألقى نفسى بين تياراتها المختلفة وأن أعيش تحت رعاية ظلها الممدود أيا كان هذا العيش سخياً أم ضنياً .

كنت أحب الكتب فهى مصدر مجد متواضع ولكنه خالد . ولم أكن أحفل مطلقاً بما تنشره الصحافة المحلية من شئون السياسة والاجتماع .

وفى ذات مساء كنت أقلب صحيفة أمريكية تنشر بحوثاً عن الشعوب المختلفة . واطلعت فيها على بحث خاص بعصر فيه من الأخطاء والأغلاط ما يستحق الرد ويستأهل العناية فأمسكت بقلم متواضع وبسطت أمامى ورقة لم تزد عن حجم « الفولسكاب » ؛ وأخذت أرد على هذه الأخطاء ثم طويت الورقة وأودعتها صندوق البريد وكأنى أقول لها « اذهبى إلى أمريكا . والله معك » .

لم أكن أفكر فى شىء مطلقاً سوى أنى كتبت . وأنى رددت على مقال فيه أخطاء وأنى. أديت واجباً نحو وطنى وبلدى لم أكن بطبيعة الحال حريصاً على أن ينشر الرد وانما قلت قد يقرأه موظف ما فى الصحيفة المذكورة ويعلم الحقيقة كلها أو بعضها وما يضيرنى لو أنه سطا عليها وانتحلها لنفسه أو ذهب فى طريقها يبحث عنها إلى أن يقع عليها كاملة فيذيعها بين قومه وبين الناس

كانت هذه الخواطر وأمثالها تشغل بالى وقت أن كتبت ثم عادت إلى روحى طمأنينتها . وبعد أيام تلقيت كتابا من الجريدة المذكورة تنهى إلى فيه أنها تسلمت كلمة منى وتشكرنى على هذه العناية وتضيف إلى ما تقدم أنها ستوافينى فيما بعد بمصير الكلمة .

كانت هذه الاشارة كافية لاحداث لون من الاضطراب فى نفسى . وأشاعت عدم الاستقرار فى حسى . وطال الزمن قليلا . وبعد حين تلقيت كتاباً اخر فيه نبأ من الجريدة بأن إدارة التحرير قد قرأته .

ويحلو لى أن أحدثك عن شعورى بعد قراءة السطور الأولى فقد أحسست حقاً أن هناك حكماً يطويه القدر ويعلقه بين شفتى قاض صارم حازم . وأنا فى موقف الاتهام وفى شوق إلى معرفة النهاية أنى كانت حلوة أو مرة نهاية يجب أن أعرفها وأنا أسمع صوت القاضى .

ثم التهمت بقية الكتاب بعين سريعة متطلعة إلى معرفة الغيب ينبعث من سطور الكتاب . فاذا بها تزيد « وقد قررنا نشره فى عدد كذا وسنرسل لك العدد المذكور » .

اختفت فى نفسى كل الآمال والأمانى وبقيت لدى أمنية واحدة هى أن يمد الله فى عمرى إلى أن يصدر العدد المشار إليه . وأن يقرأه الناس فى مغارب الأرض ومشارقها .

ومن عجب أن إدارة الجريدة تطلب إلى أن أوافيها بما أشاء من الكتابات . وزادت بأن طلبت منى أن أخصها بكتاباتى دون غيرها من صحف أمريكا وفى نهاية كتابها « وتجدون فى طيه شيكاً تلقاء ردكم علينا وتصحيح ما وقعنا فيه من خطأ غير متعمد »

هذا نظام بديع درجت عليه بعض أمهات الصحف الأجنبية ومن آثار هذا النظام توطيد الصلة القوية المتينة بين الصحيفة والكاتب فجعلت أوافيها بكتاباتى وهى توافينى بما استحق من مال . أرسلت إليها ذات أسبوع أربع مقالات بين قصة وبحث . فتلقيت منها رداً ذات صباح بأنها تأسف لأن الظروف السياسية تحول بينها وبين الظهور . وأن لها الشرف بأن ترسل إلى مكافأة المقالات الأربع . ذلك أننى تعبت فى البحث والكتابة وآثرتها على غيرها من صحف للقارة الجديدة . غير أنها تستأذننى فى أن يكون لها من التصرف فى نشرها فى الصحيفة التى تختار

وفى الوقت الذى تشاء فأجبتها إلى ما طلبت . ثم وافتنى بأعداد من الصحف التى نشرت مقالاتى . ثم عدت وأصابنى الكسل الذى يعاودنى من حين إلى حين فلم أعد أحفل بالكتابة إلى صحف أجنبية .

والكسل وقاك الله أياه . مرض خطير وليس فيه خير خاصة إذا أصاب أحداً من المشتغلين بأعمال الفكر فانه حكم بتعطيل أعظم أداة وأجلها وأخطرها فى الإنسان . وللكسل فترات موقوتة . ولاعيب فيه ما دام يكون عارضا إنما الخوف منه إذا أصبح العرض جوهراً . وظل الكسل عنواناً يعرفه به الإنسان . وطابعاً ينطبع عليه .

كنت أحدث جماعة من الصحفيين فى ليلة من ليالى الشتاء وإنها لطويلة تغرى الإنسان بالثرثرة عن هذا الحادث وهنا بدأ شيوخ الصحافة الذين سلخوا فى خدمتها عشرات السنين وورثوا عنها الفقر والحاجة وان بلغت بهم إلى صف رفيع من نباهة الذكر وعلو الشأن بدأوا يتحدثون عن ذكرياتهم ويخوضون التاريخ القريب والبعيد ويغوصون بين أعماقه ويتغلغلون بين جنباته ثم يؤوبون من رحلاتهم بالصدف واللؤلؤ والمحار .

* * *

كانت أغراض الحياة محدودة ومطامع الناس قليلة .

كان العلم والمعرفة غير متسع الآفاق بين سكان بلد لم تزد نسبة المتعلمين فيه على ثلاثة فى المائة فلم تكن هناك صعوبة فى أن يشق الإنسان طريقه إلى هدف المجد . أما اليوم فقد اتسعت أغراض الدنيا وغاياتها . وتعددت مذاهب الفكر والعمران . والإنسان فى عراك دائم بين مطامعه وبين أغراض الحياة . ويصعب عليه أن يصل إلى وردة دون أن تجرح يديه الأشواك وتدميها وتترك على جلده أثراً محبوباً لطيفاً لوردة قطفها وزهرة جناها ورعاها .

رحم الله أياماً مضت .

فقد كانت الصحافة المصرية لم تتعد المقالات فى شئون ضيقة من شئون الحياة فهى مقالات فى أمور تتصل بالأمن أو الصحة أو مصلحة التنظيم . وكانت المقالات تتناول ظروفاً سياسية على هيئة متراضية متواضعة لطائفة من الأسباب ليس هذا محلها وليس هذا موضعها بحال .

وكانت المقالات تتراوح بين الطول والقصر والتوسط وكانت أجورها تدفع وفق حاجة الصحيفة . وهى صحف تهادن الحكومة أو تهاجمها .

أما زعيم هؤلاء الكتاب فكان أحد أبناء الأزهر إتخذ من أحد المقاهى مكتباً خاصاً به وكان المقهى يقوم إلى يسار الداخل إلى

شارع محمد على من جهة ميدان الملكة فريدة اليوم والعتبة الخضراء إذ ذاك .

كان الشيخ حلو الحديث له سمار يجلسون إليه منذ الصباح يشربون الشاى ويفرطون فى شربه إلى درجة الادمان ولو كان الشاى خمرا لما وعى أحدهم جهة من الجهات الأصلية ولظل ثملا لا يعرف أين موضعه من الحياة .

وكان الشيخ يلازم المقهى منذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل ويعد المقالات المختلفة فى الشئون والأغراض التى قدمناها وهى مقالات تتراوح بين الطول والقصر والتوسط يقدمها لأصحاب الصحف وفقا للميزانية اليومية المقررة .

أما أصحاب الصحف فكانوا يترددون عليه — هم أو عمالهم — وكان يدور بينهم الحديث الطريف التالى :

— صباح الخير يا مولانا .

— أسعدتم صباحاً سيدنا .

- نريد مقالا مع الأمن العام .

— بأى ثمن .

— بخمسة عشر قرشاً .

فيدس الشيخ يده فى جيب معين من جيوب القفطان ويخرج له المقال ويسلمه لراغبه ويتقاضى منه الثمن .

ثم ينصرف الصحفى الأول ويأتى الثانى ويسأله .

— نريد مقالا ضد الأمن العام .

— بأى ثمن .

— بعشرة قروش .

فيدس الشيخ يده فى جيب آخر من جيوب القفطان ويخرج له المقال ويتقاضى الثمن .

كان قفطان الشيخ بمثابة أدراج المكتب يقوم كل جيب منه مقام درج يضم المقالات ذات الطول الواحد والمعنى الواحد .

أما أصحاب الصحف فكانوا ينصرفون إلى صحفهم وينشرون هذه المقالات ثم يقصدون إلى من بيدهم الأمر ويساومونهم ويتناولون منهم ما فيه « القسمة » لوقف الحملة أو معاونة منهم على صد الهجوم .

انظر إلى هذا الوضع . وانظر إلى أثر هذا الرجل الذى يؤدى عملا أتوماتيكياً فى هدوء وتواضع دون أن يعرف الناس عنه شيئاً . وقارن بين الصحافة فى هذه الأزمان السالفة وبينها فى الأيام الحاضرة حتى أصبحت « آية الزمن » كما وصفها شوقى شاعر مصر على النحو الذى قرأته فى صدر هذا الكتاب .

كان أصحاب الصحف أخلاطاً من الناس وكانوا ثقاة فى الجهل . ولم يكن يقبل على هذه الصناعة إلا من عجز عن كسب رزقه

فى الحياة . وكان نجاحهم فيها معلقاً بأرجل طير تدفعه الأقدار .

سمعت أحدهم يثنى على مقال وكان ثناؤه على هذا الوجه .

نعم ! ! نعم ! ! المقالة مطولة مطولة ولكنها موجزة أنه لايعرف دون شك الفرق بين الإطناب والإيجاز . ولكنه استعمل كلمة موجزة فى موضع القوة والخطورة . ولا يبعد أنه التقط كلمة الايجاز من أفواه أدباء تردد على مجالسهم .

على أن الصحافة فى تلك الأيام كانت تعنى عناية تامة بالأدب وإن كان الأدب إذ ذاك غثاً فجاً لا يخرج عن ترديد ما تضمنته الكتب القديمة خاصة دواوين الشعر ونوادر الأدباء .

وكانت الفكاهة اللاذعة بضاعة رائعة يطلقونها من غير حياء وكانوا لا يعرفون التورية ولم يكن المقصود منها فكرة عامة وانما يطلقونها فى عرض الطريق لتصيب انساناً معيناً يذكر اسمه سافراً وكذلك لقبه وكنيته . بغية أن يساهم باشتراك سنة أو أكثر أو أقل . وكانت الاشتراكات مرتفعة كما لو أن المريخ أصدر صحيفة يشترك فيها أهل الأرض .

ولست أنسى نكتة نشرت عن إحدى المغنيات المصريات يوم عرف العالم الطيران وادعت صحيفة أن المغنية المذكورة قد امتطت متن طائرة . ثم قصد إليها المحرر يسألها عن شعورها ساعة أن ركبت الطائرة .

فأجابت :

– والله دى حاجة تحير أنا عشت ربع ساعة بالمقلوب رأسى فى الأرض ورجلاى فى السماء .

وقد لقى أصحاب الصحف فى هذه الأزمان صنوفاً من الارهاق فالنيابة العامة لم تكن تحفل بأمرها ولم تكن الحكومة معنية بمراقبتها على النحو الذى يعرفه الناس فى القرن العشرين .

وإنما كانت الأمور مقصورة على صاحب الصحيفة وعلى من تناول عرضه أو شرفه أو كرامته وقد ضرب كثيرون من أصحاب الصحف وقتل بعضهم تلقاء ما وجه من قول ونشر من كلام .

لم تنته هذه المأساة – حتى فى هذه الأيام – فلا يزال بعض الصحف الاقليمية تنسج على هذا المنوال .

فقد زارنى أحد كبار الأطباء الذين يشغلون كرسياً فى كلية الطب – ذات مساء – وسألنى عن اسم صحفى يصدر صحيفة فى الأقاليم .

فقلت له : أنى أعرفه .

قال : أريد أن أراه .

قلت : انه يجلس دائماً فى أحد مقاهى ميدان الأوبرا .

قال : هيا بنا .

ركبنا سيارة الطبيب إلى أن وصلنا إلى المقهى المذكور . ثم

ترجلنا ودلفنا إلى داخل المقهى وأومأت بأصبعى إلى الصحفى . ثم انصرفت وصديقى وأنا لا أعرف سراً لهذا كله . وإذ أردت مغادرة الباب الرئيسى استدعانى صديق آخر فاعتذرت للطبيب وبقيت مع الثانى وما كدنا نتناول أول رشفة من فنجان القهوة حتى سمعنا هرجاً واضطراباً .

الطبيب الأستاذ يمسك بعصا غليظة ويهوى بها على رأس الصحفى ويوسعه ضرباً وضرباً ثم ينصرف وقد ترك له بطاقة تحمل إسمه وعنوانه .

أزعجنى هذا الحادث ووقفت حائراً فأقبلت على الطبيب أسأله السر فاذا به هادئ على النحو الذى عرفته منذ عشر سنين بل كان أكثر هدوءاً واطمئناناً ثم قال المسألة تعتبر منتهية والحديث فيها لا فائدة منه . وأن خير شيء أن نبدأ الحديث فى أشياء أخرى لا العتب ينفع ولا اللوم ينفع وانما أردت أن ألقى عليه درساً فى الأدب وأعتقد أنه درس مفيد .

قلت له ولكنك أعطيت الرجل علقة قاسية وأنت فى نظر الناس جميعاً معتد . والناس لا يعرفون الحقائق . لا سافرة ولا محجبة . فماذا بينك وبين الرجل وهو غريب ومسكين . وأضفت إلى ما تقدم . أنا أعرفه حق المعرفة . إنه يحصل على قوت يومه بعنف وقسوة . وله عدة أولاد . وأن العيش يدفعه إلى ارتكاب أشياء

تسىء إليه حقاً . ولكن ليس للإساءة قيمة إلى جانب لقمة خبز يقضمها صغير أو تزدردها فتاة . وماذا يفعل مثله معكم. وقد فاض المال عندكم فتنفقونه على السينما بوصفها غذاء روحياً . وتبذلونه فى المراقص بوصفها تخفيفاً عما تلاقون من متاعب الحياة. وتدفعونه إلى غانية جزاء ما أدخلته على أرواحكم من سرور . . . بالله عليك . . لو دس الرجل يده فى جيبك وأخرج قرشاً عنوة أو خفية ألا تتحرك الدولة للحادث . فما أراد بالقرش سوى أن يقتات به هو أو أحد أهله وذويه الذين يعول — ألا تجند له الدولة ضابط بوليس وعدداً من الجنود . ورئيس المباحث الجنائية . ووكيل الحكمدار . ووكيل النائب العام . وكاتب تحقيق . ثم تفتح أوراق وتبسط . ثم تفتح أبواب السجون وتعقد محكمة وتعطل مرافق عامة هامة . فى سبيل رجل أساء إلى غنى لا يفيده القرش ان بقى فى جيبه ولا يضيره ان ضاع فى الطريق مسروقاً أو غير مسروق .

تجهم وجه الطبيب . ولمعت فى عينيه دموع . وأنا أعرفه رجلا يطوى نفسه على خير ثم انتحى بى مكاناً قصياً وابتدرنى بالحديث

« قل للصحفى ! ! قل له . اتخذ ما تريد من اجراءات . واذهب للمحاكم وافعل ما تشاء ولكن بالله عليك . سلمه هذا المبلغ بوصفه من جيبك أنت . فبعد يومين عيد . وقد تأثرت

بحديثك . ولكن لم يكن بد من هذه العلقة » .

علمت من صديقى الطبيب أن نفراً من تلاميذه فى كلية الطب أرادوا أن ينالوا من شرف الطبيب وهو أستاذهم . فحاولوا أن يتصلوا بالصحافة فى العاصمة فرفضت صحفها على كثرتها أن تكون أداة رخيصة للأغراض يتسلى بها قارئ . فانصرفوا إلى هذا الرجل واتفقوا معه على أن يدفعوا له عشرة جنيهات تلقاء المقال وأن يشتروا منه خمسمائة عدد يوزعونها هم أنفسهم بالطريقة التى رسموها . فوافق على ذلك .

ولم يكن هناك بد من أن يقتص الطبيب لنفسه على النحو الذى وصفت . ومن عجب أن المبلغ الذى سلمنى إياه الطبيب بلغت قميته الثلاثين جنيهاً .

* * *

مضمار حوادث العالم كله هى الصحافة دون شك . وأن أدنى الغايات وأبعدها عند الصحفى أن يأخذ نفسه ويروضها على ألوان العلم والفن والمعرفة . فهو قبل أن يسأل الناس الأخبار يسألونه هم عن الأخبار . وليس من العدل أن تأخذ ولا تعطى .

من أجل هذا لا ينقطع سيل الأسئلة من الأصدقاء والمعارف فى الأزمات السياسية أو الإجتماعية أو الأحداث ذات الصبغة العامة سيل تنقله آلة التليفون للصحفى فى مكتبه أو فى بيته أو فى

ناديه وهو مضطر أن يعمد حيناً إلى الصراحة وحيناً اخر إلى اللف والدوران .

على أن هناك طائفة من الصحفيين يعتبرون من أبناء المدرسة القديمة فلا يحتفلون بتنمية مواردهم الثقافية والعلمية . ويعيشون على طبيعة الموهبة القلمية . وثروة الأسلوب وقد يصيبهم خير مادى فى بعض الأحايين .

فقد سبق أن عرفت صحافة مصر أول الأمر قيمة البرقيات الخارجية فى إحدى الحروب . وكان الشعور فى هذه الحرب شعوراً دينياً . وقد حرصت صحيفة يملكها ويحررها مسيحيون على نشر البرقيات الخاصة فى ملاحق تصدرها فى الأمسيات . وكانت الجماهير تقبل عليها لتعرف اتجاه المتحاربين وقد أصابت الصحيفة من وراء ذلك مالا وفيراً واستطاعت أن تقتنى الضياع الزراعية وأطلقت عليها تفاتيش الملحق تذكاراً لهذه الملاحق التى أصدرتها فدرت عليها المال فاقتنت به الضياع .

وقد غاظ هذا العمل صحفياً قديماً لا يعرف من اللغات الأجنبية شيئاً وكان يصدر صحيفة فكاهية أسبوعية ولم يكن اصدار الملاحق مشروطاً بقانون فاتفق مع نفر من أصدقائه على اصدار ملاحق يعارض بها الصحيفة المشار إليها وأن تخترع البرقيات اختراعاً ولما كان لا بد من ذكر مصدر الأنباء — وكان لا يخرج عن روتر

وهافاس — فقد اتفق الرأى على أن يكون اسم المصدر « سلونيكلى زاده » وقامت برقياته على قلب الحقائق فان انتصر الكفار فى موقعة كذا جاءت برقياته تنصر المؤمنين فى هذه الموقعة بالذات على هيئة ترقص لها قلوب السذج من الناس .

ومن عجب أنه قوبل بنجاح منقطع النظير ونال مالا وفيراً وطاف يوزع من ملاحقه أضعاف ما كانت توزع الصحيفة الأولى . ولكنه أضاع ما دخل جيبه من مال وهو اليوم يعيش فى تواضع من العيش . وما من يوم سألته عن هذا التاريخ الذهبي إلا وأجابنى « مال تجيبه الريح تذهب به العواصف » .

* * *

إذا لم يكن الصحافى ذكياً موهوباً فانه يظل فى صناعته تاجراً بلا زبائن كل ماله فى الحياة لوحته تنهض دليلا على أنه يعيش ولا ينتج . وإذا لم تكن ثروته العلم والمعرفة فلا ينتهى به البحث والدرس قضى عليه مهما واتته الظروف .

عند ما أخذت تركيا تشرع فى تغيير رسم الكتابة من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية أثار عملها هذا الكثيرين من الناطقين بالضاد . وترك تركيا كثير من المعارضين وأصدروا صحفاً فى الخارج يبدون فيها وجهة نظرهم ويحملون على أنصار التغيير . وكانوا

يصدرون صحفهم باللغة التركية مكتوبة بالحروف العربية بطبيعة الحال .

وكان يلي أمر الوزارة فى مصر سياسى معارض لأغلبية الراى العام وكانت سياسته بين الأخذ والرد . وكان بعض الصحف يتناول هذه السياسة بقوة وشدة وعنف وتلصق به أشنع التهم وأخطرها واعتمد السياسى على صحف مؤيدة له وجعل يبعث فى نفوس محرريها القوة ويبث فيهم النشاط ويدفعهم إلى إثارة الرأى العام . وكان أنصاره يندفعون فى طريقهم مهاجمين معارضيه بأسلوب أشد وأعنف .

والمعارك السياسية فى مصر لا تعرف العقل ولا الحكمة . وانما هى والمعارك الانتخابية سواء كفة فى الأرض وأخرى فى السماء .

كان من أنصار هذا السياسى صحفى دأب على نشر سلسلة من المقالات حرص فيها على إثبات ما يسمع فى الأندية والمجالس من آراء وأفكار يصوغها على النحو الذى يرتضيه . ويناقش ما يعن له من اراء سواء أثيرت حقاً فى المجالس أم اخترعها الصحفى اختراعاً .

بسط هذا الصحفى ذات صباح بين يديه صحيفة تركية معارضة للانقلاب التركى فوجد اسم السياسى المصرى عنواناً لمقال طويل عريض فأمسك بالقلم ونشر بين يديه الورق وأخذ

يكتب مقالا عن السياسي يقول فيه « من عجب أن مصر تعارض سياسة هذا الرجل النبيل . وقد ذاع صيته ونبه شأن سياسته فى الخارج . نقول هذا وبين أيدينا نسخة من جريدة (كذا) التركية عرفت ما للرجل من قدر وقيمة . وسننشر غدا ترجمة هذا المقال القيم الذى دبجته يراعة محايد . ليعرف المصريون أن الذى يتولى أمرهم قد اختارته العناية الالهية فى هذه الظروف الحرجة . وكنا نود أن نترجم المقال اليوم . ولكن مترجمنا التركى — لسوء الحظ — مريض فإلى غد وإن غدا لناظره قريب » ثم نقل المقال فى الجريدة إلى أن يترجم غداً .

نشر هذا فى المساء . وفى الصباح صدرت صحيفة معارضة فتناولت موضوع المقال وقالت بلغة ساخرة . « نريد أن نوفر على الزميلة التعب . ولا داعى لارهاق المحرر التركى . ونحن نورد فيما يلى ترجمة المقال الحرفية ثم نشرت الترجمة فإذا بها تلصق بالسياسى المصرى من التهم وألوان القذف ما لم تقدم عليه صحيفة مصرية من قبل ..

على أن هناك فريقاً من الشبان النابهين يحاولون أن ينشروا ثمار ما يجنون من قراءة غير أن الصحف المصرية لا تعنى بأمرهم لأن أسماءهم غير معروفة وأصحاب الصحف عبيد الشهرة . وليسوا ملوك الحقيقة . وقد حدث أن صحيفة كبيرة أنشئت لأول مرة

وتولى أمر تحريرها وإدارتها أبرع المصريين علماً وسياسة وفناً ونالوا أرفع الدرجات العلمية من الخارج . وكان صدورها حدثاً صحفياً فى الحق . وفرح الشبان بها واغتبطوا لظهورها غير أنها ما كادت تظهر حتى درجت أو حرصت على نشر المقالات للكتاب والشخصيات اللامعة . وكان الناشئون يبذلون الجهد فى سبيل نشر آرائهم وأفكارهم وبحوثهم . وكانوا يستعينون بمعارفهم وأصدقائهم رغبة فى نشر إنتاجهم .

زارنى ذات مساء أحد هؤلاء الشبان وطلب إلى المعونة فى نشر مقال دفع به إلى فى تواضع وانكسار .

قرأت المقال فإذا به على خير ما ينتج أديب راسخ القدم . فقلتُ ألم يبعث به إلى جريدة (كذا)

قال : « وافيتها به منذ شهرين . ولم ينشر » .

قلت : « أضف عبارة قصيرة فى الذيل لا تكلفك شيئاً » .

قال : « ما هى » .

قلت : « أكتب . . . مترجم عن اللغة الصينية » .

ابتسم الأديب الناشىء وقال : « كم أتمنى أن تكون ناشئاً الآن مثلي . لتحس مرارة السخرية وما تفعله من أثر فى النفس » .

قلت : « أقسم لك أننى أشير عليك بالمشورة التى تؤثر فى القائمين بأمر هذه الصحيفة » .

وفى الأسبوع التالى صدرت الصحيفة . وفى صدرها مقال صاحبنا وفى ذيله العبارة التى أشرت باضافتها . بعد أن قدمته للقراء خير تقديم .

نعم !! إن أمر النشر فى الصحف معجزة من المعجزات . وقد بينت لك صنيع الصحيفة الأمريكية معى . فهل عندنا من النظام والتقاليد ما يجعل الصحف المصرية تعنى بتغيير نظامها الراهن وأن تجعل المصلحة فوق مختلف الإعتبارات . المحررون مرهقون بالعمل . وتوزيع الاختصاص بينهم فيه كثير من الارهاق وسكرتارية التحرير مرهقة كذلك .

وكل ما يحدث أن توزع المقالات على اثنين فى الصحيفة ويوكل بهم أمر القراءة والاختيار والتصحيح إلى غير ذلك . والبريد يحمل سيلا من هذه المقالات . فالمحرر فى هذه الحالة مضطر إلى أن يفضل الأسماء المعروفة على ما عداها لما عرفت به من تجربة وسلامة أسلوب ومن هنا يضيع الناشىء .

وأذكر أن صحيفة أسبوعية نشرت سلسلة مقالات تحمل إسم آنسة وكان لأسلوبها أثر شعرى فى النفوس . وقد تلقت هذه الآنسة فيضاً من رسائل القراء عامرة بالإعجاب . ومن الكتاب من خطب ودها وجعل كبار رجال الدولة يتزلفون إليها

عشقها صحفى كبير متقدم فى السن وله شهرة خيالية . وكان

طويلا مسرفاً فى الطول . عريضاً مبذراً فى العرض . كأنه هودج عند ما يتحرك أو قطعة من جبل إن حط . حمل نفسه يوماً وذهب إلى منزل الآنسة ووجد عدة أطفال يثبون على الحبل وهم صغار أبرياء — بنين وبنات — فأقبل عليهم فارتاعوا وأخذوا يتفرقون إلا فتاة فى التاسعة ودار بينها وبين الصحفى هذا الحديث :

— اسمعى يا شاطره .

— نعم .

— هل تعرفين بيت الآنسة فلانه .

— نعم . ها هو — وأشارت بأصبعها — وإذا به أمامه . مضى وإياها فى الحديث وقال :

— أريد أن أراها . فهل لك أن تخبريها بأن فلاناً بالباب .

فانطلقت الفتاة إلى زميلاتها وزملائها قائلة :

— أمينة !! أمينة .. هذا الرجل يريد أن يراك .

أقبلت أمينة فاذا بها فى التاسعة فوقف الصحفى ودار بينه وبينها هذا الحديث

— أنت فلانه .

— نعم .

— هل المقالات التى تنشر فى صحيفة (كذا) لك .

— نعم .

ـ ومن يكتبها لك .

ـ فلان ابن عمي. وهو موظف فى جريدة (كذا)

عاد صديقنا الصحفى . وذهب إلى الصحيفة التى دلت عليها أمينة . وسأل عن ابن عمها فعلم أنه « صفاف حروف » ولكنه موهوب وأنه صاحب أسلوب . وأنه لجأ إلى انتحال اسم قريبته لأن مركزه كعامل يحول بينه وبين نشر شيء باسمه مهما أوتى من موهبة .

وقد عاونه الصحفى القديم المعروف على تغيير مجرى حياته الصحفية وانتقل من صف الحروف إلى التحرير . ونجح فى هذا المضمار نجاحاً غير قليل ولا يزال يقوم بعمله حتى اليوم فى إحدى الصحف وأنشأ له صحيفة أسبوعية كذلك .

غير أن الحادث لم يمر على وجه من الهدوء . فقد أصبحت الصحف تخشى تكراره وبدأت تدقق فى معرفة الذين يكتبون إليها بأسماء مستعارة أو أسماء فيها شك وريبة . وليس أدل على ذلك من أن صحيفة تلقت مقالا وقعته صاحبته باسم مستعار أو اسم رمزى . وظلت المقالة مطوية بين أدراج الجريدة عدة شهور خشية أن تكون من نوع المقالات التى أشرنا إليها . وبعد سبعة أشهر تقريباً عرفت شخصية الكاتبة . فأقبلت الصحيفة تشجعها

ومضت الكاتبة فى طريقهاواحتلت مكانة لا بأس بها من حيث الأسلوب فى الدوائر الأدبية .

وكثيراً ما تكون خطورة المسائل أو المشاكل التى تتعرض لها الصحافة داعية إلى أن تستجيب لرغبات القراء فتقبل على نشر ما يوافونها به حتى ولوكانت غفلا من الإمضاء وعلى سبيل المثال تلقت إحدى الصحف سلسلة من المقالات فى شئون التعليم مهرها راسلها بالحرف الأول من اسمه وظلت تنشر له قرابة عام . ثم خطر له أن يزور الجريدة يوما وقد تبين أنه أحد رجال القضاء وانه يقوم بعمله خارج القاهرة ومن ذلك أيضاً أن أحد الشعراء آثر صحيفة يشعره وهوشعر رصين لا تزيد قصائده عن بضعة أبيات وشغل شعره الدوائر الفنية وأصبح معروفاً فى طول البلاد وعرضها دون أن يكشف عن حقيقة اسمه حتى هذه اللحظة . وليس من شك فى أن هذا الشاعر يعتبر مثالا رائعاً فى التواضع وانكار الذات . فلو أن شعره هذا جاء على لسان غيره من الناس لم يكتف بالنشر وإنما حاول أن يتقاضى أجراً على هذه اللفتات الإنسانية التى يهبها الله إياها فى أوقات متباعدة .

وبعد عدة سنين حضر إلى القاهرة لأول مرة فى تاريخ حياته . ثم زار الصحيفة التى تعنى به وكان موضع الحفاوة والتكريم . غير أنه ظل محافظاً على أن يكون اسمه الحقيقى سراً مكتوماً بين

الذين عرفوه من سدنة هذه الصحيفة . ونذكر أن هذا الشاعر يشغل وظيفة متواضعة فى إحدى مدارس الريف الأولية . وكل ما صنعته له الدولة أن نقل موظفاً فى مكتبة البلدية لعاصمة إحدى المديريات .

إذا قارنا بين هذا الرجل . وبين غيره من كبار المصريين لتبين لنا مدى البون الشاسع بين تفكير رجل متواضع وبين الكثيرين من هؤلاء السادة أصحاب الرتب والنياشين والمراكز . ينظر الناس إليهم بوصفهم أصحاب المثل العليا الرفيعة فى البلاد .

وقد حدث ذات مرة أن دعانى أحد أصدقائى لزيارة أحد هؤلاء السادة فى قصورهم المشيدة على حافة النيل فأبديت له الأعذار غير أنه أصر على اصطحابى معه وكنا صديقين لانفترق

القصر فى الواقع منيف . كدت أصاب بدوار مما فيه من لوحات فنية . وزوج الرجل ملحوظة من أرفع الأسرات فى البلاط وكانت لها عين الوحش مفترسة . ظلت ترمقنى بلحظ يتلوه لحظ . وأنا فى حيرة من الأمر ودعانا السيد لزيارة مكتبته وهى تضم عشرات المئات من المجلدات بلغات يعجز أهل الأدب فى مصر عن اقتنائها مجتمعين . وقد توطدت الصلة بينى وبينه . وفى ذات مساء دعيت إلى مائدة ضمت أكواب الشراب . وجلست فى الوسط وإلى يمينى الزوج . وإلى يسارى زوجها وما كدنا نرشف

الجرعة الأولى حتى اتجهت إلى زوجها طالبة إليه أن يستعين بى فى تأليف كتابه الجديد .

سألت عن الموضوع فعجبت لأمر هذا السيد . فكتابه بلا موضوع . وأخيراً عرفت أنه مغرم بأن يظهر اسمه على كتب يضعها له غيره مكتفياً بأن يجزل العطاء للمؤلف على أن يظل هذا العمل سراً مكتوماً بينه وبين مؤلفه . قال لى عقلى وما يضيرك أيها الرجل . والمرأة حلوة جميلة مضيافة كريمة . والمكتبة عظيمة رائعة . يكفيك أن تعيش بينها والرجل سخى ذو مال موفور . قال عقلى هذا فأخذت به فتحققت كل الأمانى . فكنت موضع ود السيدة وكانت المكتبة تحت تصرفى ونلت من مال الرجل ما لم ينله مؤلف فى ذلك الحين . وألفت له أكثر من عشرة كتب . ودخل جيبى من ورائه عشرات المئات من الجنيهات . غير أن الذى كان يقتلنى ويضنينى أن الرجل كان يحرص على أن أفهم منه جيداً أنه صاحب هذه المصنفات وكم من مرة دعانى ليقرأ لى فصلا من فصول كتابه الجديد وكنت أجلس إليه وهو يقرأ . قراءة طالب فى السنة الأخيرة من التعليم الابتدائى .

وأخيراً اعتزمت أن أقف منه موقف حزم وعزم . فقلت له يا مولانا أنا لا أستطيع أن أقوم فى وقت واحد بعملين وما خلق الله انساناً وفى جوفه قلبان . فأما أن أؤلف . وأما أن أكون مستمعاً

فحسب فاذا كان للتأليف ثمن فإن للاستماع ثمناً آخر . فاتفقت على أن يكون الاستماع تلقاء مال اخر . وظلت الأمور تجرى على هذا النحو عدة سنين . ثم انصرفت عن هذا العمل فيما بعد ذلك وأنا أرى فى نفسى الحجر الدائر الذى لا يعرف الاستقرار .

فهذا الصنف من السادة له صلف وكبرياء . فقد وقع نظرى على أحد علية القوم فى حفل عام . وكنت أمثل إحدى الصحف فيه. ورأيت فى حركاته ومظاهره ما يدعو إلى إنكاره فلم أشر إلى اسمه بشىء . وقد تكرر هذا أكثر من مرة . فإذا بى أدعى إلى مكتب رئيس التحرير . ووجدت سيدنا جالساً أمامه فى وجه أسد خدشت كرامته وجرحت عزته . ثم بدأ يناقشنى الأسباب الملجئة لإغفالى اسمه . ورأيت ابتسامة سخرية ترقص على شفتى رئيس التحرير فقلت ماذا أفعل يا باشا وأنتم من الكثرة بدرجة عظيمة فأرجو المغفرة . وثق أن اسمك سيكون فى أول الأسماء فى المستقبل إن شاء الله وليس الأمر مقصوراً عند هذا الحد بل أن الارستقراطية الفكرية تنزل من برجها العاجى . وتضعف عند بعض الأفراد أمام النشر فقد عرفت أحد كبار موظفى الدولة اسمه مؤلف من أربع ألفاظ وهو دكتور فى العلوم ثم فاز برتبة البكوية وكان أحرص الناس على أن ينشر اسمه ورتبته ولقبه العلمى وكانت هناك استحالة مادية من حجم الصحيفة وكنت أكتفى بأن

ننشر له اللقب العلمى ورتبته (بك) غير أنه ثار أكثر من مرة وشكا إلى الصحيفة وقد خوطبت فى ذلك أكثر من مرة . وأخيراً اتفقنا على اغفال اسمه كله وكفى الصحفيين شر الأسماء .

* * *

الالحاح فى سبيل المجد أيا كان نوعه غريزة إنسانية فمن من الناس يرى المجد ولا يقبل عليه ؟ قد يكون الجواب سلباً أو إيجاباً . غير أن الناس يحسون فى أعماق نفوسهم أن يذاع اسمهم فى الناس هذه حقيقة إن لم تقرر . فهى الحقيقة الخالدة التى يعرفها الصحافيون جميعاً يعرفونها ويلقون منها أهوالا ما بعدها أهوال . وهم يحسدون الصحافيين على أن الله وهبهم أقلاما تهز عروش الملوك . وتعصف بجبروت الدكتاتوريات هذا حق . وكم ألقت الصحافة بجبابرة حفروا لها قبوراً وأرادوا أن يقذفوا بها بين جنادلها وصخورها . فإذا بها تلقى بهم فى أجواف القبر الذى حفروا . وتنتهى بهم إلى المصير المحتوم .

فهل يحس الصحافيون إحساس العظمة فيما يكتبون .

هذا سؤال دقيق وخطير .

إذاعة الاسم فيه مجد عظيم خطير . ولكن الرجل يجلس إلى مكتبه ويأخذ فى معالجة موضوع معين . قد تستغرق كتابته ساعات طويلات وقد يتم له هذا فى أيام أو شهر . ثم ينشر بحثه

ويقرأه الناس فى كل مكان فيحس لوناً من ألوان العظمة واللذة الروحية .

ولكن الصحافى الذى يجلس إلى مكتبه . ويطلب إليه أن يؤدى واجباً صحفياً ووطنياً مفروض السداد فى برهة قصيرة . فيجلس إلى مكتبه ويشعل سجارته ويظل يشعل واحدة من أخرى ويقطع عليه تفكيره بين آونة وأخرى ساعيه يحمل من بين يديه ما انتهى إليه من كتابات . أو ينبئه بأن زائراً كريماً أو غير كريم يقف بالباب . وهو يرد على هذا فى كثير من الهدوء أو يدق جرس التليفون بين دقيقة وأخرى ليتلقى نبأ جديداً . أو صديقا يسأله عن سر مسألة . أو سيدة تبدى شكاية وهو لا يستطيع أن يقول أننى مشغول بل لا بد له أن يلاطف ويجامل ثم يعود إلى مقاله يكتب ويكتب ويكتب حتى يفرغ منه .

مثل هذا العمل يحيل الإنسان من صورة إنسانية حساسة إلى آلة صماء لا تعنى إلا بما يطلب إليها من إنتاج .

يحدث هذا على حساب الأعصاب . على حساب العاطفة التى تتجاوب فى نفس لا تملك من أمرها شيئاً .

أى جمال لهذه النفس ؟ لولا أن الصحفى يعيش فى صومعة يتعبد فيها ويصلى لما استطاع أن يواصل حياته على هذا النحو

وأى رق أشد وأقوى من رق الصحفى وفاء منه لصنعته وإخلاصاً لجلالها وعرشها ؛

كان مقرراً أن أوافى صحيفة أسبوعية ذاع صيتها صباح كل يوم أربعاء بصفحة فكهة . وكان لهذه الصفحة أثرها فى نفوس القراء . فكانت تلقى منهم تقديراً وإعجاباً . وقد درجت على أن أقدم لهم صنوف الجد فى ثوب الهذل وأخلط السياسة بصنوف السخرية اللاذعة .

وذهبت إلى الجريدة . فى الصباح . والحياة مفتوحة الأبواب وصدرى يعمر بمسرات الكون كله . وطلبت قدح قهوة وأشعلت سيجارة . وبسطت الورة أمامى . وأخذت أعد القلم . فدخل على صاحب الصحيفة ومعه سيدة أرادت أن تتعرف بى وجلسنا ثلاثتنا نتحدث وكان جل همها أن تشعرنى بطرافة الموضوع الذى أزجيه للقراء كل أسبوع .

كانت تقول « إنك بلغت أوج الفن فيما تتصدى له من أمور وشؤون على هذا النحو الساحر من التفكير والأسلوب .

لم أدر كيف أدبر الحديث أو كيف يكون الرد . غير هزة الرأس شكراً على هذا التقدير .

وإذ نحن نتحدث دخل علينا أحد السعاة ودفع أمامى ببرقية فضضتها وليس للبرقيات أثر فى نفس الصحافى .

وكيف أضطرب لبرقية . وقد اعتدنا أن نتلقى العشرات بل المئات منها . وكلها تدور حول العمل . غير أنني ما كدت انتهى منها حتى طفرت الدموع وأحسبت دواراً يضني ويقتل . انطوت البرقية على أقسى نبأ . وقد كانت لى شقيقة أحبها إلى حد العبادة . لقيت أجلا محتوماً تراخت يداى وألقيت بالبرقية فالتقطها صاحب الصحيفة . وجلست الزائرة فى صمت وسكوت ثم ساد الغرفة جو من الظلام . بدده صاحب الصحيفة بمحاضرة عن فلسفة الحياة والموت . وإن الموت غاية كل إنسان حى . وأن الذى يذهب لا يعود . قلت له « لقد فهمنا هذا وحفظناه وعلمتنا إياه الحياة . ولكن ألا تتركنى لحظة واحدة أخلو فيها إلى نفسى . لعلى أجد العزاء فى عزلة .

قال « لك هذا . ولا شك أنك راحل إلى موطنك . ولعلك قادر على انجاز صفحتك الآن .

قلت صفحتى ! ! ؟ ؟

وأخذت أضغط على الحروف فى النطق .

قال « نعم ! انظر إلى هؤلاء العمال الذين وقفوا متعطلين أمام آلة الطباعة . وانظر إلى مستقبل الصحيفة . وإلى مستقبلك كذلك » .

قلت « ويل لك ! ! أغرب عن وجهى ... سأنجز كل شىء وسحقاً لك أيتها الصفحة » .

وكدت أصعق . غير أنى تمالكت نفسى وقلت للسيدة الزائرة وكانت دموعها قد بلغت منها خدين جميلين . وقلت لها ما عليك من هذا شيء . ثلاثة فى الحياة أحوج الناس إلى شفقة ممثل على خشبة المسرح . وصراف يعد المال ويربط على بطنه الحجر . وصحافى يبتدع بعاطفة مكدودة .

وبدأت أكتب . ثم انصرفت ولحقت بالقطار . وشيعت جنازة العزيزة .

قالوا لى بعد عودتى « لقد كنت رائعاً حقاً هذا الأسبوع وأن التليفون لم ينقطع عن السؤال عنك » .

لم يكن لهذا كله أثر فى نفسى . فالذى ذهب وانقضى قد مات والذى يذهب لن يعود . وما قيمة الأنباء إذا كنت أضحك والقلب يفيض بالبكاء وأن أمرح والنفس تفيض بالاتراح . وويل للإنسان من نفسه .

كان أول من عزانى . هذه الزائرة الكريمة . فقد غمرتنى بعطف كبير . ورعاية عظيمة . ولكن ما من أشياء تقوم مقام شيء

* * *

تقتضى الصحافة من الدولة عناية كبيرة .

وتقتضى الدولة من الصحافة عناية كبيرة كذلك .

وقد فهمت الصحافة مهمتها . ولكن الدولة عرفت الصحافة وإن لم تعترف بمهمتها بعد . فكثيراً ما تناصبها عداء . وتشن فى وجهها حرباً شعواء . ولا يزال الكثيرون يبتعدون عنها وينفرون منها . ويقيمون فى سبيلها عوائق وعراقيل .

ولولا الصبر الذى يمتاز به الصحافى . وسعة الحيلة التى طبع عليها لتغيرت أوضاع المهنة فى هذه البلاد .

أن الإنسان ليعجز عن تصور حالة مصر لو أن دولاب الفن الصحفى وقف فى مكانه دون أن يتحرك ولكن الدولة تحس الحاجة إليها فى بعض الظروف فتستفيد من الصحافة حتى إذا ما انتهت تلك الظروف واستقرت الأمور . عادت الصحافة تكافح وتلقى الشدائد إلى أن تحتاج الدولة إليها من جديد .

ترددت على إحدى الوزارات . وتوثقت الصلة بينى وبين بعض موظفيها . غير أنهم أجمعوا على أن هناك موظفاً واحداً يعتبر عدو الصحافة رقم ١ . ولم أحاول أن أتعرف به خوفاً من ضياع الوقت . وما دام الأمر لا يعدو العداء فلا سبيل إلى إصلاح الأمور . كنت أعرفه شكلا وموضوعاً وكان يعرفنى شكلا لا موضوعاً .

وأقيم معرض ذات يوم وندبه الوزير لحفلة الافتتاح وكنت ممثل صحيفتى فى هذه الحفلة .

فى الرجل ضعف أمام الصحافة . فهو يريد أن تذكر عنه كل شىء . وإن كان يخشى أن يؤلب هذا الشىء أو الأشياء رؤساؤه عليه . وطفنا بالمعرض دون أن أحاول التحدث إليه . ثم اختلفنا إلى موائد الشاى وكان نصيبى أن جلست إلى يمينه فبدأ هو يحدثنى عن الوزير الذى ندبه فأكد لى أنه خير الوزراء الذين شهدتهم وزارته وأنه يعرف أقدار موظفيه وأنه من أجل ذلك فضله على بقية زملائه فندبه لهذا العمل الجليل . إذ كان فرحه لهذا المعنى لا يقل عن فرحه لو أن قاروناً أورثه ماله وثروته وقبل أن ينصرف سألنى عما إذا كانت لى سيارة فأجبت نفياً .

وقال « إذاً فلتسمح بأن أضع سيارتى تحت تصرفك وأنت فى طريقك إلى مكتبك » .

وشكرته . واتخذنا مجلسنا فى السيارة وبدأ يقص على اتجاه الوزير فقد طلب من مراقبى العموم أن يضع كل منهم تقريراً عن حالة مراقبته من الناحيتين الفنية والإدارية والملاحظات التى وقفوا عليها والمقترحات التى يرونها فى سبيل الاصلاح .

وأخذ يشرح حالة العمل بمراقبته وما ضمنه تقريره من اراء وأنا أسمع . ثم دخلت غرفة المكتب وبدأت بتنسيق مقال عن هذا التقرير وقد احتفت به الصحيفة حفاوة فائقة فوضعته فى صدر المحليات بما انطوى عليه من بيانات واقتراحات .

واستيقظت فى الصباح على نداء التليفون . ذلك أن إدراة الصحيفة اتصلت بى واخبرتنى أن فلان بك « يرجونى أن أقابله حالا فى مكان معين بعيد عن عمله .

قلت « يا فتاح يا عليم » .

ثم ارتديت ملابسى وذهبت إليه . وأنا أخشى بأن يبادر بتكذيب شيء مما نشرت . أو أكون قد حرفت شيئاً مما جاء على لسانه . كان يشغل بالى هذا التفكير غير أنه قدم فنجان القهوة تحية ثم قال « إسمح لى أن أهنئك على هذه الذاكرة » .

قلت « عفواً إنما أنت رجل رقيق العاطفة واضح العبارة » .

قال « ولكن الذى أخشاه أن يقول الوزير عنى أننى أقوم بدعاية لنفسى » .

قلت « معاذ الله » .

قال « لا ! ! أنت لا تعرف الخلق المصرى » .

قلت « أعرفه تمام المعرفة . ولكن ماذا أصنع وقد وقع المقدور. ولا داعى لأن أؤكد لك أن المصدر لا يمكن إذاعة شيء عنه . أو إفشاء اسمه بحال » .

قال « لم يخطر ببالى شيء من ذلك على الإطلاق . ولكن أحب أن تنشر أنباء تقارير بقية زملائى حتى يكون الموقف سليما أمام الوزير وبقية الزملاء » .

قلت « أنت تعلم يا سعادة البك . أن بقية زملائك قوم يخافون وأن الرهبة تملأ قلوبهم . فإن طلبت من أحدهم تقريراً إعتصم بالهرب ولاذ بانتحال الأعذار » .

قال « لا ! لاتحمل لهذا هماً . وسأوافيك هذا المساء بملخص التقارير » .

قلت « وهو كذلك » .

إنصرفت من المكان وفى المساء وصلتنى النصوص الرسمية لتقارير زملائه . وأخذت أنشرها الواحد تلو الآخر وقد فرحت بأن خلقت من هذا الرجل صحفياً مغموراً . ولم تكن لى يد فى الحصول على هذه التقارير سوى المصادفة لا أكثر ولا أقل .

ومن عجب أن الصديق الجديد . جافانى بعد أن انتهيت من نشر تقارير الوزارة فكان يقابلنى مصادفة ولا يلقى على تحية أو سلاماً . وظل الأمر كذلك عاماً وبعض عام . وهنا عرفت أنه يخشى الصحافة وليس عدوها رقم (١) كما يدعى .

* * *

ليس كل الناس من هذا الطراز . بل أن هناك كثيرين يحبون الصاحفة ويوطدون صلتهم بها . ويؤثرونها بالأنباء والأخبار هامة وصادقة . دون أن يطلبوا إليها أن تؤدى لهم مقابلا . وأن خير الأوقات وأسعدها عندهم أن يعرف الناس الحقائق وأن يتغذوا

بما يدور وراء الستار . وإن كان هذا الصنف من الناس قليلا . فإنه جدير بالتنويه .

عرفت واحداً من هؤلاء فتوطدت الصلة بينى وبينه وكان يقضى سهراته فى مكتبى وكلما أضنانى التعب ذهبت إلى مكتبه ، وقضيت فيه ما أشاء من وقت ونديرألوان الأحاديث المتباينة .

وقد وقع لى ذات يوم نبأ هام . وكان هو أحد الذين يعرفون أسراره . فهمست فى أذنه دون أن أشعره أننى أعرف أنه على صلة به . فقال « لا تنشر شيئاً عن الموضوع » .

قلت « لك هذا . ولكن أخشى أن يتسرب الأمر إلى غيرى من الصحفيين فينشره إما محرفاً مشوهاً وفى هذا جريمة . وإما صحيحاً وبذلك يضيع على عمل صحفى له خطره وشأنه » .

فقال « إذا نشرت صحيفة عنه شيئاً فأنت فى حل من نشر بياناتك ومعلوماتك » .

كنت أعتز بهذا النبأ . حريص على نشره ولم تكن هناك وسيلة لذلك سوى أن ألجأ إلى صديق صحفى وأسر إليه أن ينشر شيئاً قريباً من الموضوع لا يزيد على أربعة أسطر .

فنشر الصديق ما اتفقنا وإياه عليه فى صحيفته المسائية وأقبلت أنا فى الصباح فنشرت التفاصيل والبيانات والمعلومات فكان لها الدوى الذى قدرت .

ولما قابلت صديقي الموظف فى الصباح ابتسم وقال « على العموم أنها حيلة لطيفة ومحبوبة ثم انتقلنا إلى أحاديث أخرى . لم نذهب فيها إلى عتاب أو ملام وظلت العلاقات قائمة بيني وبينه على خير وجه ذلك أن الثقة كانت رأس المال . ولا تزال الثقة رأس مال الصحافى الممتاز . وليست طرائق الحصول على الأنباء والأخبار وليدة التهديد أو الارهاب : وإنما هي وليدة الثقة .

فقد يدخل صحافى ممتاز بلغ فى المهنة درجة عالية وسامية . على موظف صغير أو كبير ثم يحاول أن يحصل منه على نبأ فلا يفوز منه بطائل . ثم يزوره بعد دقائق صحفى حديث ويسأله عن الأنباء فيخرج من مكتبه وقد فاضت جعبته بالأخبار ذلك أن الثقة هى مدار العلاقات وأساس العمل . فان انعدمت انهار كيان الصحفى . وظل يعانى من المهنة والعملاء شيئاً كثيراً .

* * *

. أعتقد أن الصحافة لا تقل عن الحقوق الطبيعية المشاعة التى يجب أن تتوفر للناس على السواء . كالهواء والماء والشمس والغذاء . ولا يعرف هذه الحقيقة إلا الطبقة المستنيرة والذين أصابهل خير المهنة . غير أن هناك من يغالون فى استغلالها فيضطر الصحافى إلى أن يصبح على كره منه مديراً « لبروبوجندة » لزيد من الناس وما باليد حيلة .

وقد استساغ أحد وكلاء الوزارات مسألة الدعاية وحاول أن يرضى الصحافة كلها بالعدل والقسطاس . فدعا جماعة المحررين الذين يمثلون الصحف كلها . ولما اجتمعوا فى مكتبه اتجه إليهم بالقول مشيراً إلى أنه يقدر المهنة وأنه يعتبر نفسه أحد عناصرها الفعالة . وعلى هذا فقد حدد وقتاً معيناً كل يوم يجتمع بالصحافيين ويدلى إليهم بما يشاء ويجيبهم على ما يوجهون إليه من أسئلة فارتاحوا جميعاً إلى هذا الحل السعيد الموفق .

وبدأوا يشكرونه على هذه الروح الطيبة .

ووقفت من هذا الأمر موقف التمثال الصامت الذى لا تقرأ على صفحة وجهه أى معنى من المعانى ثم قلت « ولكنك بهذا تقتل فى نفس هؤلاء الشبان روح الصحافة الحقة . وتجعل منهم آلة صماء تأتى إلى مكتبك وتحمل ما تلقيه عليهم من أنباء دون أن تتركهم يذهبون هنا وهناك يبحثون عن لون الغذاء الذى يقدمونه للقارئ . بعد أسبوع يكونون جميعاً نسخة طبق الأصل من أنباء وزارتك وأرائها . وأنا أحب أن يسمو كل منهم عن هذا الوضع فإذا مضت الوزارة فيه فلا داعى لأن يعمل فى الصحف محررون وإنما يكتفى بالسعاة الذين يجيدون القراءة والكتابة . وتملى عليهم ما تريد ثم ينصرفون إلى إدارات الصحف يصبون فى مكاتبها هذه الأنباء وتلك الآراء .

ونحن نريد أن نجعل من هؤلاء الشبان صحافيين مجتهدين لا متكلين معتمدين . وإن نبأ واحد يتعب الإنسان فى الحصول عليه خير من مئات تأتى سهلة ميسورة .

ثم ماذا ؟ ؟

كيف أوجه إليك سؤالا خاصاً فتجيب عليه فيستفيد منه الجميع . إن خير طريقة أن تيسر لنا مهمتنا . وأن تحلوا بيننا وبينكم الثقة وأن تجعلوها الشركة القائمة الدائمة بين الوزارات والصحافة .

ألقيت هذه الملاحظة ثم وقفت ألتمس الانتصار من الزملاء . فلم يوافقوا على ذلك وهنا بدأ الوكيل يدلى إليهم بما يريد نشره وأنا أستمع إليه . وشهدت أسبوعاً من هذه الاجتماعات اليومية دون أن أنشر شيئاً عما دار فيها من أحاديث أو أنباء أو اراء .

وكنت أعتقد أن هذه الحالة لن تدوم فهو فى حاجة إلى أن أعنى بأمر وزارته . ثم خرج عن القاعدة بعد أن تبين أن الزملاء لم يزيدوا فى أداء واجبهم على ما يقوله لهم. وعاد إلى الوضع القديم . وترك المجال حراً أمام الصحافيين . والسبق للمجد لا للمتكل .

على أن هذا الحادث ترك فى نفس الزملاء — أريد أن أقول بعضهم — أثراً سيئاً . فقد ظنوا أننى أقف حجر عثرة فى سبيل مهمتهم . فكانوا يتفقون فيما بينهم على تكذيب ما يصل إلى من

أخبار إن صدقاً وإن كذباً .

وبلغ ببعضهم الأمر أن كان يسعى لدى الموظفين عله يحصل على تكذيب . وكأن الصحافة فى عرفهم العداء الدائم بين الزملاء . وشاءت الظروف أن يحدث حادث لم يكن لى به شأن .

توفيت والدة أحد الأصدقاء فذهبت إليه معزياً وقابلت فى المأتم أحد كبار رجال الدولة . وقد تفضل قبيل منتصف الليل فصحبنى إلى مكتبى . ونحن فى الطريق أنهى إلى بأن رئيس الحكومة يفكر فى إنشاء مجلس أعلى للتعليم . ثم وافانى بكل الخطوات التى تمت .

وكان رئيس الحكومة من الذين ينظرون إلى الوزارة نظرة شكلية فى الأمور الخطيرة . فكان يفكر لهم ويفاجئهم بمشروعات وبقرارات ومن سوء حظى أن الليل قد انصرم نصفه . وأن المساحة الباقية من الجريدة لا تسمح بالإطالة والتفاصيل فاكتفيت باشارة عابرة عن المشروع .

وفى المساء فوجئت بتكذيب قاطع من وزير المعارف بأن شيئاً من هذا لم يطرح على بساط البحث ولا علم له به .

طلبنى رئيس التحرير وتحدث معى فى هذا الصدد فأكدت له صحة النبأ وأن لدى تفصيلات جديدة سأنشرها فى الصباح .

ونشرت جزءاً من التفصيلات وأخفيت أجزاء .

فعادت الجريدة المسائية وأخذت تكذبنى من تلقاء نفسها متبرعة هذه المرة .

وظلت مساجلة بينى وبين الزميل أنشر كل يوم جزءاً وأتلقى فى المساء تكذيباً . وظل الأمر كذلك خمسة أيام .

وبين لحظة وضحاها صدر مرسوم ملكى بتأليف المجلس المذكور. ثم انتظرت النتائج وكيف يكون وقعه فى نفس الزميلة .

كان وقعه أن نشرت صحيفته المرسوم ومهدت له بهذه العبارة «كنا أول من أشار إلى أن الحكومة تفكر فى إنشاء مجلس أعلى للتعليم واليوم نوافى القراء بكذا وكذا» .

* * *

لا يزال الكثيرون من الزملاء يعتقدون أن التصدى لأخبار زملائهم بالتكذيب من الأعمال الصحافية الرائعة .

كل إنسان معرض بطبيعة الحال للخطأ والصواب . فالعصمة لا تكون إلا لنبى . ولكن أخطر أخطاء الصنعة أن يعرف الإنسان أنه أخطأ ولا يقبل على إصلاح خطئه وانما يمضى فى سبيله كأنه معصوم من الخطأ والزلل .

حدث أن صحيفة كبيرة عينت تلميذاً فاشلا فى التعليم الثانوى محرراً بها . فكان همه أن يكذب أخبار غيره من الزملاء . وبلغ به الأمر أن يطلب إليهم مستعيناً على تكذيب الصحف التى

تصدر مع صحيفته فى وقت واحد .

وقد احسست فيه هذه الرغبة . وأردت أن أشبعه منها ذلك أنه كان يعتقد أن تكذيب غيره من الصحف يزلزل الثقة القائمة بينها وبين القراء .

نشرت ذات يوم أن موظفاً منحته الحكومة الفرنسية وساماً ثم قابلت الزميل . وقلت له هل تريد أن تكذب نبأ هاماً قال « ما هو » .

قلت « نشرت نبأ الإنعام على فلان بوسام فرنسى . وهذا صحيح غير أنه ذهب إلى المفوضية الفرنسية . ليتسلم البراءة والوسام . فعلمت أنه دون الثلاثين . والحكومة الفرنسية لا تمنح الأوسمة إلا لمن فى سن الثلاثين فما فوقها » .

وفى الصباح صدر نبأ فى صحيفته تحت عنوان « يمنح وساماً ثم يحرم منه لصغر سنه » كانت هذه الفضيحة سبباً فى الاقلاع عن هذه الخطة . وعلم بعد ذلك أنه كان موضع السخرية والازدراء ثم رأت الصحيفة بعد حين أن تستغنى عن خدماته .

* * *

مهنة تقتضى من صاحبها صبراً طويلا . لا يرقى إليه صبر أيوب . والصبر مفتاح الفرج . ومن مستلزمات الصبر ضبط

النفس . والتحكم فى الأعصاب . وإذا خرج الصحافى عن هذه القاعدة خسر كثيراً . .

كان موت الملك فؤاد ضربة قاصمة هزت أعصاب البلاد وتتابعت الحوادث المحلية وكان المصريون يسبقون الحوادث . وهذا أمر عجيب وملحوظ . وقد حدثنى مرة أحد كبار الأجانب الذين عملوا فترة طويلة فى وزارة الداخلية فذكر أن المصريين أقدر الأمم والشعوب على اختراع الحوادث وأن روعة خيالهم تدعو إلى الدهش والاستغراب .

وكان موت العاهل العظيم يشغل النفوس والقلوب والعقول معاً . فولى العهد بعيد عن قاعدة ملكه ولم يصل بعد إلى سن مباشرة الحقوق الدستورية . والبلاد مشغولة بانتخابات مجلس النواب . ومجلس وصاية يضطلع بحقوق الملك .

وقد تحدد موعد افتتاح البرلمان فى هذه الظروف الحزينة وقصدت إلى مجلس الشيوخ بناء على دعوة من أحد كبار موظفيه فوجدت زميلا قد دعى إلى الاجتماع كذلك . وقد تلقيت منه طائفة من البيانات والمعلومات . ثم جاء دور نقل أسماء المدعوين إلى حفلة الافتتاح والشرفة التى تخصص لهم . فطلب منا الموظف الكبير أن ننقلها على أن نتجاوز عن نشر الأسماء التى وضع أمامها علامة × كان زميلى يجلس إلى طرف المكتب

وأنا إلى الطرف المضاد . وهو يملى وأنا أكتب . ثم انهيت من هذا العمل وانصرف زميلى على وجه الاستعجال .

وأخذت أجمع ورقى ووقفت أحيى أحد الشيوخ الأصدقاء . وكانت الحجرة مزدحمة بالشيوخ والنواب وكبار موظفى الدولة . فسألنى الموظف أن يطلع على ما كتبنا فسلمته أوراقى فبدأ يقرأ الأسماء وبحركة عصبية دفع بالأوراق داخل الدرج وهتف بساعيه أن يدعو الصحفى الذى خرج الآن فهرول السعاة خلفه ولحقوا به فى حديقة وزارة الأشغال . ثم أخذ منه مذكراته وألقى بها فى داخل الدرج كذلك .

لم أفهم شيئاً مما حدث . غير أن الموظف الكبير بدأ يلقى على محاضرة قيمة فى الأمانة . وأن الأمانة يجب أن توضع فى عنق الأشراف لا فى عنق قوم ليسوا أهلا لها ولا أنداد لخطورتها ثم بدأ مطر لا ينقطع من ألفاظ نابية وقاسية .

قلت فى هدوء وكان الصمت قد ساد الغرفة . وقف جميع من بها مذهولين . وبدأ زميلى يتحفز فضغطت عليه فى شدة دون أن يشعر إنسان بقرصات يدى فى فخذه . قلت « قد تكون محقاً فى كل ما تقول . غير أننى حتى هذه اللحظة لا أعرف سبباً لهذه الثورة » .

قال « ومن أنت حتى تعرف السبب » .

قلت «أنا لا شيء فى الوجود . غير أنك وجهت إلى الدعوة فحضرت إلى هذا المكتب واتفقنا على ما يجب نشره . وعلى ما لا يجب . فإذا كنت لم تحسن الاختيار فعليك أن تحاسب نفسك . وإذا كان حسن ظنك فى غير محله فأمرك إلى الله » .

قال « كيف تنشر أسماء لم أرخص لك بنشرها » .

قلت « النشر لم يتم بعد . وأنا لست مسئولا عن خطأ غيرى . فزميلى يقع عليه الخطأ . ذلك أنه هو الذى يملى وأنا أكتب ولا سبيل إلى المراجعة . والمذكرات معك . افعل بها ما تشاء . فأنت الذى تقدر المسئولية . غير أننى أحب أن أقول لك لولا أننا فى ظروف استثنائية لما حفلت صحيفة بنشر شىء عن حفلة افتتاح البرلمان » .

تركت الورق وانصرفت وبدأ دور زميلى . وهو رجل زلق اللسان لا أعصاب له فبدأ يهاجم الموظف المذكور مهاجمة عنيفة وشديدة . اعتبرتها أنا من أحكام رد الاعتبار » .

كنت أقف أمام سيارتى فى دهش وعجب لهذا الأمر . وأردت أن أعرف السر . وإذا بموظف كبير يلحق بى ويسلمنى مذكراتى ويقول قد شطب اسم فلان من الشرفة الفلانية قلت أشطبوا ما تريدون والآن قد وضح السبب فان الأمر يتعلق بمخالفة

هى تخصيص مكان صغير لشخص أريد به أن يجلس فيه على سبيل المحاباة .

من رأيى أن أمر بهذه الحوادث فى كثير من الهدوء ولا أجعل منها حادثاً يثير الأعصاب . ويخلق جواً تشيع فيه الآلام وقبيل منتصف الليل استدعانى رئيس التحرير .

ورئيس التحرير رجل مهذب . إن أراد مقابلة أحد معاونيه اتصل به تليفونياً وطلب إليه فى رقة وظرف أن يتفضل بزيارته قبل الانصراف .

دخلت الحجرة فوجدت الموظف الكبير ومعاونه الذى لحق بى فى الحديقة . ووقف يعتذر فى حرارة وإخلاص .

قلت « ثق أن هذا الحادث لا أثر له فى نفسى . إذ أنى لم أرتكب خطأ . وإنما الخطأ وقعت فيه أنت بسبب تصرف غيرى . وأنا أعذرك . ولو كان للحادث أثر فى نفسى لأثرته هذه الحجرة » .

قال « أنت قتلتنى بتصرفك فى مكتبى . وقتلتنى برقتك فى مكتبكم . وأحب أن نكون منذ الآن صديقين » .

قلت « سنكون أصدقاء إن شاء الله » .

وليس هذا الحادث هو الأول أو الأخير من نوعه بل أن هناك

حوادث عدة تقع كل يوم لسدنة صاحبة الجلالة . وفيها المطرب في بعض الأحيان .

لست أنسى يوماً زرت فيه إحدى الوزارات فوجدت رجلا مكتنز اللحم وفير الشحم ترسل على صدغيه وذقنه لحية كثة شوهاء . ولهذا الزجل قصة تصلح أن تكون كتابا مستقلا .

كان يقف عند مدخل الباب العام ومن حوله عدد من السعاة وقد أمسك فى يده عصاه وهى قصيرة وغليظة . وهتف بى فى عنف وشدة « إلى أيها الداخل . من أنت ؟ » .

رفع أحد السعاة يده فى خفة وضرب بأصبعه فى رقة على قرب من المخ دلالة على أن الرجل مخبولا . تقدمت منه وسلمت عليه فى كثير من الاحترام وتصنع الخوف منه والرهبة من مقامة . فأدخل هذا العمل السرور إلى نفس الرجل . عرفته بنفسه فقال « أتعرف من أكون » قلت « نعم ! ! أنت وكيل الوزارة الجديد » .

كان الرجل موظفاً بالأقاليم ثم أصيب بنوع من النورستانيا وقد ظهرت أعراضها عليه فى الوزارة .

كنت أحب ألا أسوق هذه القصة : ولكن رأيت فيها لوناً من ألوان الشذوذ الذى يلقاه الصحفيون فى حالات كثيرة .

اتفقت وإياه على أن نكون صديقين وفيين . ثم حدث أحداث اضطرت الوزارة من أجلها إحالته إلى الطبيب المختص فى

مستشفى الأمراض العقلية . ولما حاولوا اقناعه بالذهاب رفض فأرادوا استعمال الشدة . غير أنه أبى أن يستمع إلى التهديد . وطالب بأن أشهد هذه القضية الإنسانية . قال لي والدمع يترقرق في عينيه « هل أنا مجنون » .

قلت « معاذ الله . وكيف ينسبون لوكيل وزارة مثل هذا النوع من المرض . إنها نار الحقد تدفع جماعات الموظفين الأفذاذ إلى محاربة العباقرة بأى سلاح » .

قال « اذهب وقابل الوزير . وقل له على لسانى أننى رجل خدمت الوزارة أكثر من ربع قرن ولا أملك بيتاً . وليس في جيبي قرش واحد . وليس لى مورد . وأنا رجل غير مثبت . وماذا أصنع اليوم . وقد جعلت من وزارتي مثواى الأخير . فهل أحرم بقية الدهر من العيش الكريم . لأننى مجنون » .

كانت نفسى تتفاعل مع هذه المعانى وكاد الدمع يطفر منها . وخرجت من الوزارة فى حالة نفسية ثائرة ثم كتبت كلمة فى الموضوع وأحمد الله على أن الوزارة استجابت لهذا النداء وأكرمت الرجل وبقى فى مركزه .

ما كاد زملائى يقرأون الكلمة حتى زارنى واحد منهم وانهلع يكاد يقتله. وكنت أحب هذا الزميل فقد كان ممثلا بارعاً خفيف الظل والروح كثير المبالغة « قال « قرأت الكلمة وقد أردت أن

أحيل عليك مجنوناً آخر محباً للظهور والعظمة . وإنه يقطع السبيل علينا فى البيت والشارع والجريدة » .

قلت « من يكون هذا ؟ » .

قال « سيحضر بعد لحظات . وقد استطاع أن يخرجنا عن جادة الصواب وأن يسخر من عقولنا . وهو لا يتحرك . إنه بليد الذهن . وقد حاولنا أكثر من مرة أن نأخذه باللين فما أفاد . وبالشدة فما أجدت . » .

قلت « أنا فى انتظارك » .

بعد لحظات دخل شاب لطيف جميل الطلعة حسن الهندام ثم قدموه إلى بوصفه شاعر الشباب .

بدأ حديثه بالشكوى من جريدتنا لأنها لا تنشر له مقطوعاته الشعرية لأن شاعراً معيناً عرف باسم شاعر الشباب صديق قديم لرئيس التحرير والمحررين . وانه يستعديهم على من يقول الشعر من الشباب . كنت أسمع له وأنا أدرس حالته النفسية واتبع حركاته وسكناته .

ثم قلت « من محاسن الصدف أن الشاعر الذى تعنيه صديقى وهو رجل تجاوز الخمسين بحفنة من الأعوام . وأنت شاعر مثله ودون العشرين . وأنا أعجب كيف يكون هذا العجوز الشيخ

شاعر شباب . وماذا تكون أنت . ألا توافقنى على أن تكون شاعر الأجنة فى أرحام أمهاتها » .

بدأ وجهه الثائر يأخذ ملامح الملائكة . والثورة العاصفة التى تستشرى فى وجهه وأساريره تتلون بالهدوء والسكينة ثم قلت له « ألا تسمعنى شيئاً من شعرك » .

دس الفتى يده فى حقيبته وأخرج منها رزمة من ورق . وجعل يقرأ نحو ثلاث دقائق .

وهنا ضربت المكتب بيدى على هيئة تمثيلية ثم قلت فى عنف « اخرس أهذا شعر » .

فاضطرب الفتى وقال « كلا إنه زجل » .

قلت « اقرأ ثانية » .

فقرأ نفس المقطوعة . فعدت إلى ثورتى وسألته « أهذا زجل » .

فزاد اضطرابه وقال « انه شعر منثور » .

وعدنا إلى القراءة وعاد يقول « إنه نثر » .

وزاد اضطرابه أمام ثورتى . وقال « إنه لا شىء » .

قلت : وكيف تريد بنا أن ننشر كلاماً هو لا شىء .

قال « أتحب الحق » .

قلت « وهل فى العالم إنسان لا يحب الحق »

قال « كثيرون » .

قلت « انشد الحق وستجدنى فى خدمتك » .

قال « إن لى جارة أحبها وتحبنى . واتفقنا على الزواج . وهى دون سنى . وكلما أرسلت إليها كتاباً بالأسلوب الذى سمعته طلبت إلى أن أنشره فى جريدتكم . وقد أفهمنى زملاؤك أن شاعر الشباب هو الذى يحول دون النشر . وأحب أن أقول لك فى صراحة أنها رفضت أن تقابلنى إلا إذا نشرت الصحف نتاج فكرى » .

قلت له مبتسما ومداعباً « أهى جميلة » .

قال « هى الجمال بعينه . بل أجمل من الجمال نفسه » .

ومد يده فى حقيبته وأخرج مجموعة من الصور الشمسية لفتاة جميلة رائعة . عذرته على حبها وعلى أن يتكبد فى سبيل النشر كل هذه الصعاب .

قلت « هون على نفسك أيها الحبيب . فأنا كفيل بأن تنشر لك فى عدد بعد غد صورك وتاريخ حياتك . ونتاج فكرك كله دفعة واحدة » .

قال « وكيف كان ذلك » .

قلت « غداً إن شاء الله . وفى مثل هذا الموعد أقبل علينا . واحمل معك زجاجة غاز . وصبها على ملابسك واشعل عود الثقاب وادفع به إلى ملابسك . وأنا سأكون على استعداد . ومعى مصور

الجريدة . وعند ما تشعل النار يلتقط لك صورة . ثم يلتقط لى ولك صورة أخرى وأنا أخمد النار . ويحضر رجال النيابة العامة والبوليس فنأخذ لك صورة ثالثة فرابعة . ثم ننشر تاريخ حياتك ومقطوعاتك الأدبية تحت عنوان « سر المنتحر » وبهذا تنال مجدين . « مجد الحب . ومجد الأدب » .

حضر فى اليوم التالى وأنبأنى الساعى بأن فتى بيده زجاجة وفى ثورة نفسية . يريد مقابلتى وإنهم يخشون أن يرتكب جريمة فخرجت من المكتب وما كدت أراه حتى صفعته صفعة شديدة وقلت « ابلغوا البوليس والنيابة لتقبض على هذا المجنون » .

أخذ الفتى يتوسل ويعدنى بألا يقدم على شيء من هذا . وانتهت زيارته للجريدة والزملاء بعد أن ظل يطاردهم قرابة نصف عام . ثم انقطعت أخباره . وذات مساء أقبل على الساعى يحمل بطاقة وقد دون صاحبها تحت اسمه « ليسانس فى الحقوق » فأذنت له بالدخول وراعنى أنه الشاعر الحبيب .

جاء هذه المرة لا لينشر بحثاً فى الفقه الدستورى . وإنما ليشكرنى على ما صنعت معه . فقد صرفه هذا « الفصل » إلى الدرس والتحصيل وأبعده عن الحب والغرام . وأصبح اليوم رجلا له مركزه فى الهيئة الاجتماعية

وقصص المتشاعرين لا تنتهى . فإن غثاثة الشعر التى يقع فيها

كبار الشعراء فى بعض الأحايين تثير كوامن المتشاعرين النفسية فما من قصيدة ركيكة تنشر لأحد أصحاب الأسماء البارزة فى مملكة الشعر إلا وتحيل مكاتب الصحفيين إلى ميدان احتجاج يطالبون فيها بنشر شعرهم ويقارنون بين نتاجهم وبين ما نشرته الصحيفة لهؤلاء الفطاحل .

* * *

هل كل ما يكتب فى الصحافة أدب . وهل الأسلوب الذى يدرج عليه الصحافيون أسلوب أدبى رفيع تطمح إليه أنظار القراء جميعاً .

هذه مسألة لها من الخطورة قيمة ذات اعتبار دقيق .

فإن الأسلوب الصحفى — فى الوقت الحاضر على أقل تقدير أسلوب يقوم على إفادة القارئ على أسرع وجه وأكمله .

فالصحفى الحديث يرى فى نفسه جامعة شعبية يلجأ إليها الناس على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم ومدى ما وقفوا عليه من قيم العلوم والمعارف والفنون من أجل هذا نجد فى الأساليب تبايناً بعيداً بين ما يكتب فى صحيفة يومية وصحيفة أسبوعية تعنى بشؤون الأدب والفن . وقد يجد الإنسان فى مضمار الصحف اليومية منافذ واسعة للنقد والملاحظة .

ذلك أن الصحف اليومية لها مهمة أدبية رفيعة تفهمها على

ضوء الواقع والمحسوس فرسالتها تقوم على رفع المستوى العام للطبقات المؤتلفة فى ميادين الفن والعلم والثقافة العامة .

على أن الصحافة ابتليت بطائفة من الناس أوجبتهم الظروف السياسية وفرضتهم على صاحبة الجلالة . فقد شهدت مصر ظرفاً سياسياً احتاجت الصحف فيه إلى اسناد منصب رئيس التحرير إلى جماعة من الناس ليس لهم من موارد الثقافة والعلم والفن الصحفى ما يؤهلهم للاطلاع بهذه المهمة الخطيرة وإنما كانت مهمتهم فيها مهمة جنائية غير أن الصحف فى سبيل إرضائهم كانت تدخل فى نفوسهم نوعاً من الرضا والقناعة فتطلق يدهم فى شىء من الحذر فى الإشراف على المقالات .

زار مصر ملك إيطاليا وملكتها . وشاء رئيس تحرير من هذا الصنف أن يكون فى شرف استقبالها وأن يلازمهما أثناء زيارتهما الآثار والمعالم المصرية مندوباً عن جريدته . ولما بدأ كتابة أخباره جاء فيها « وصل إلى محطة العاصمة جلالتى ملك إيطاليا وملكتها » فأخذ سكرتير التحرير يصحح الكتابة على النحو التالى « وصل إلى محطة العاصمة جلالتا ملك إيطاليا وملكتها» فعرف بعد التصحيح موطن الخطأ النحوى وفى اليوم التالى بدأ أخباره بهذه العبارة « تشرف بمقابلة جلالتا ملك ايطاليا وملكتها » فعاد سكرتير التحرير وصحح العبارة على النحو التالى « تشرف بمقابلة جلالتى » .

وهنا ضاق الرجل ذرعاً بهذا المحرر ودخل صارخاً ثائراً على المشرف على التحرير وكان زعيما للأدب العربى فى مصر فقال له « أنا لا أستطيع أن أعمل فى جو يختنق الإنسان فيه بدخان العناد . أكتب جلالتنا فتجعلونها جلالتى . أكتب جلالتى فتصبح جلالتنا . والله هذا كثير وإنه لكثير جداً أن يحدث بين زملاء فى صحيفة واحدة » .

فطيب المدير خاطره وصرفه فى أدب على أن يتخذ من الإجراءات ما يكفل وقف هذا فى المستقبل .

وأريد أن أسترسل قليلا فى هذا الصدد . وقد كانت الصحافة تشكو هذا الصنف من الناس ولكن لم يكن فى قدرتها أن تصرفهم عنها وذلك أن لهم مهمة قاسية وشديدة . مهمة المثول بين يدى رجال النيابة والقضاء . وقد ضنت الصحافة برجالها على أن يغيبوا عن ميدان النشاط ساعة أو بعض ساعة وهى من أجل هذا كانت تفتح صدرها لهذا الفريق الطامع فى الشهرة الراغب فى المجد وفى الناس كثيرون من هذا الصنف يبذلون فى سبيل إرضاء هذه الرغبة كل ما يملكون ولو أدى ذلك إلى الخلود فى السجون .

كتب صحفى مقالا . وأراد أن يعتمد على بيت شعر معروف تدعيما لاستدلاله وجاء البيت الشعرى بذيل المقال .

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

وقرأ رئيس التحرير الجنائى المقال فوقف طويلا أمام الاستشهاد بالشعر . ثم أخذ يعمل فكره ويكد ذهنه . ثم نقر مكتبه بقلمه الأحمر عدة نقرات . واتجه إلى المحرر بالخطاب مشيراً إلى أن المعنى غير مستقيم . فابتسم المحرر وقال له إنه بين يديك اصنع به ما تشاء . ولا تقلق لك راحة فنحن هنا نتعاون . ولا نريد أن نسىء إلى أحد .

فقال له « عظيم سأجعل المعنى مستقيما صالحاً » .

أدخل تعديله على الاستشهاد فجعل البيت على هذا النحو :

وليس يصح فى الأذهان شىء « مطلقاً »

إذا احتاج النهار إلى دليل « وحجج »

فصفق الصحفى طرباً . وأقبل على وجنتيه يطبع عليها قبلات خبيثات . وجلس سيدنا رئيس التحرير الجنائى مزهواً فخوراً . وهو يتحدث بنعمة الله التى أنعمها عليه . وظل يشكو كثرة العمل وما يرهقه به المحررون . ولولا يقظته وذمته لكانت صحيفته معطلة أو كان المحرزون جميعاً فى السجون .

* * *

هل كل من يعمل فى الصحافة صحفى ؟

شاء القانون الأخير الذى جعل للصحافة نقابة تضم المشتغلين بها جميعاً وفق شروط عجيبة ، المشرع لم يكن صحفياً . ولم يقف

على أسرار المهنة وطبيعة التقدم فيها . فالقانون في حاجة إلى تعديل كبير يحسه أبناء المهنة جميعاً .

ضمن لكل من اشتغل بالمهنة فترة محدودة أن يصبح صحفياً مشترطاً أن يكون على قسط من الثقافة .

هذه الشروط وما إليها مرنة غير محدودة ولا قيمة لها فى رفع مستوى هذا الفن .

فالأجازات العلمية لا قيمة لها مطلقاً فى عالم الصحافة لا فى مصر وحدها بل فى العالم كله . وهى مسألة قد درست وقتلت بحثاً وتمحيصاً . وانتهى الأمر إلى أن الصحافة موهبة . وليس كل المتعلمين موهوبين . ولا كل الذين لا يحملون إجازات دراسية غير موهوبين .

ولكن الصحافة فى مصر . مرت بأطوار عديدة فيها غرابة . وفيها دهش . وظلت السنوات الطويلات تسير بخطى عرجاء متعثرة لا قيمة لها إلى أن انتهت الحرب الكبرى ١٤ — ١٨ فبدأت الصحافة تتخذ شكلا آخر . وينضم إليها قوم آخرون . غير أنها تضم كثيرين من الذين لا يقرأون ولا يكتبون فعلا .

إذ لو عقد امتحان للصحفيين الحاليين لوقفنا على خطورة الحالة . والأمر ليس فى يد النقابة . فهى تضم أشتاتاً من هذا النفر أصبحوا اليوم صحفيين وأنهم يلوذون بالحق المكتسب

ويتمسكون به فى حين أن الصحفيين الحقيقيين يرجون أن تصفى المهنة من الشوائب والطفيليات وأن يرفع من وسطها قوم لا يقرأون ولا يكتبون .

وان كثيرين منهم أقل درجة ثقافية من الذين تخرجهم المدارس الإلزامية .

أحيل إلى هذا الصحفى بالقانون لأحقق معه فى تهمة ما ولا أرى موجباً لبسطها أذ إن الأذن تنفر من سماعها . وأردت أن أتبع الأدوار التى مرت به حتى أصبح صحفياً .

سألته عن المدرسة التى تخرج فيها فلم يجب فلا هو من المدارس العامة ولا المعاهد الدينية . أحضرت الملف الخاص به فوجدته ينطوى على ثلثى نهر من صحيفة يومية مسائية من الدرجة الخامسة تناول فيه بحثاً نحوياً فى « أل » ودخولها على « غير » .

قرأت البحث . ثم بدأت أطلب منه أن يشرح لى القاعدة فتوقف فى شىء من الذهول كأنه فى محاضرة تلقى باللغة الصينية أو اليابانية . بحث أعد له ونشر باسمه وعرض على لجنة الجدول ومعه خطاب بأن الأستاذ فلان يعمل فى الصحافة منذ أكثر من عامين . فوافقت على درج اسمه وصار صحفياً بالقانون ..وإن كان يصعب عليه أن يكون صحفياً مهنة وعلماً وخلقاً يوماً من الأيام .

منهم من قضى فى المهنة أكثر من أربعين عاماً . وهو غير

معروف بأثر . أومذكور بخير . وإنما هو صاحب صحيفة تصدر فى العاصمة أو الريف يعيش على النحو الذى بدأت فيه الصحافة يهمه أن يجمع المال من ابتزاز الأغنياء والموظفين خوفاً من أن يسىء إليهم فى ورقته أو عطفاً عليه . ومن عجيب أيضاً أن تكون اشتراكات هذه الصحف كأن الاشتراك يدفع لصحيفة تصدر فى المريخ يحررها قوم لهم أجسام نورانية .

هؤلاء ليسوا من الصحافة فى شىء . ولكنهم اليوم صحافيون بالبطاقة وبقوة القانون .

ومن أجل هذا نرى ازوراراً بعض الشىء عن النقابة وترفعاً قليلا أوكثيراً من الذين يضطلعون بأعباء المهنة حقاً عن دارهم وإن كانوا يحنون إليها .

ليس من شك فى أن النقابة نواة طيبة للمستقبل . ومن الأنانية والأثرة أن نبدأ بأنفسنا ننصرف عنها فى الوقت الحاضر . وإنما من التضحية أن نحتضنها وأن نرعاها والزمن كفيل بالإصلاح والبذرة الأولى نواة الثمر العظيم . والأجيال القادمة تحقق ما يفوتنا من إصلاح وسيذكر التاريخ أننا النواة الأولى فى بناء هذه السلطة الأولى والأخيرة فى نظام الدولة فى القرن العشرين .

ولا تزال المهنة — حتى فى الصحف الكبرى — فى حاجة إلى شدة وحزم فهناك طائفة من المندوبين أو المخبرين أو سمهم

كما تشاء . يعانون الأمرين فى الحصول على الخبر . ومنهم من تقع له الأخبار يسيرة ذليلة ولا يستطيع أن يصوغها على الوجه المطلوب .

يصوغون أنباء هم فى أسلوب عجيب لولا أن قلم التحرير يتداركهم بالتصحيح والتقويم . لكانت أساليبهم أفكه الأساليب ن قرئت عارية دون ثوب التوضيح والتعديل .

وصف واحد من هؤلاء عرض رجال البوليس فى مناسبة ما إلى أن جاء دور الحكمدار وهو على صهوة جواده فقال « وكان الحكمدار فوق ظهر جواده واقفاً لا يلوى على شىء .

يعرف هذا الفريق من الصحفيين أن بعض الأخبار تحتاج إلى تعليق . وأن المحرر يعمد إليه فى آخر الخبر . فشهد أحدهم جلسة محكمة المخدرات . وقد اتهمت فيها سيدة بالإحراز والإدمان والاتجار . وكان الناس جميعاً يثقون بأن المحكمة ستصدر ضدها حكماً قاسياً . غير أن القضاء رأى فى القضية ما لم يره الجمهور فأصدر حكماً بالبراءة .

وأراد صاحبنا أن يعلق على هذا الحكم فكتب فى صحيفته « وهكذا طلعت منيرة العريف براءة .

يطلق الصحفيون على هذا الفريق من أبناء المهنة « صحفيون يابانيون» إشادة بما عرفت به الصناعة اليابانية من رخص الأسعار

وقد أقبلت عليهم بعض الصحف لرخصهم وهؤلاء يقعون على أى نبأ أو خبر ينشرونه كيفما اتفق . اعتقاداً منهم أنهم يؤدون واجباً صحفياً ممتازاً .

فوزارة الدفاع تصدر نشرة عن الجيش فى أوقات معينة فيها ما تستأهل النشر فى حالات نادرة وكلها فى مجموعها لا تستحق العناية . غير أن هؤلاء يقعون على تلك النشرات كما يقع النحل على الزهر . ثم ينشرون ما جاء فيها طبق الأصل وقد نشرت إحدى الصحف ذات مساء النبأ التالى :

« نفق البغل ٤١٦ وصار شطب اسمه من تعداد الجيش » ووضع له العنوان التالى « البغل ٤١٦ » .

لو أنه صحفى ممتاز لجعل من هذا النبأ دعابة لطيفة تدخل السرور على نفس القارئ وخرج بها من الجد إلى الهذل .

* * *

الصحافة روح وذوق . وحسن اختيار للموضوع . وليس كل حادث جديرا بالنشر . فإن قلنا أن كلباً عض رجلا فهو حادث سخيف . ولكن إذا قلنا إن رجلا عض كلباً هذا هو الحادث الذى ترتج له الصحافة فالألفاظ فى الحادثين لم تتغير ولكن الأفعال هى التى تغيرت وهى التى أحدثت الآثار المختلفة فى الوقت .

ومن هنا يجدر بالصحفى أن يضن بألفاظه وبقلمه وزمنه وأن

يجعلها فى خدمة الأحداث التى تستأهل منه الكتابة وتحتاج إلى جهد . أما اختيار كل ما يقع فأمر يطول به الزمن ولا تنتهى به الأيام وتصبح الصحف صورة من كل ما يقع فى الحياة فى حين أنها مرآة تجلو الحقائق التى لها أثر فى خدمة المجتمع والعالم الإنسانى فى مجموعه .

وآراء الناس تتغير فى الصحافة وفقاً لما عاشوا فيه من تقاليد ووفقاً لثقافتهم وبيئتهم .

فقد يكون علمك بحادث وجهل الصحفى به . سبباً فى أن ننظر إليه نظرة معينة تنقص من قدره وتضعف من شأنه وهذا الوضع كثير الحدوث .

كنت أذهب فى شهور الصيف إلى مكتبى فى وقت مبكر أنتهى فيه من عملى أو جزء كبير منه على أقل تقدير . ثم أتفرغ بعد ذلك للثرثرة مع الزملاء أو الأصدقاء أو أنصرف إلى خارج القاهرة وأنا رجل أعيش على أعصابى وحسى دقيق مرهف .

وفى هذا الهدوء قبل أن تعمر الجريدة بسكانها من المحررين والمترجمين والزائرين وأصحاب الحاجات أقبل على ساعى المكتب ، وهو رجل نوبى طاعن فى السن دائم الابتسام مؤدب مهذب رقيق الحاشية . وأخبرنى أن سيدة فى انتظارى .

قلت « دعها تتفضل » .

وقمت من فورى وارتديت السترة . وأصلحت من شأن مكتبى فى عجلة وإسراع . وكان من أشق الأمور وأصعبها أن أعيد إليه النظام أو شبهُ نظام . وأحسب أن مكتبا واحداً فى الوجود تقوم عليه أكداس من الورق والتقارير والقصاصات ونسخ من الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية فى مختلف الفنون وضروب العلم والمعرفة هو مكتب الصحافى . وقد طال الانتظار بتشريف السيدة فأخذت أصلح من شأن المكتب قدر ما أستطيع وامتدت يدى إلى « الكرافتة » وجعلت أعالج ربطها ذات اليمين وذات الشمال . وأرفعها وأخفضها . وتمنيت لو أن الله استبدل بهذا المكتب مكتبا آخر وأن يكون لى وجه يصلح لقاء السيدات .

الساعة الخامسة وسكان الجريدة يقبلون على عملهم بعد ساعة أو بعض ساعة . وهى فترة من الزمن لأن أخرج فيها عن زحمة الدنيا ومتاعب الحياة . وأن أختلس النظر إلى سيدة وأسمع الحديث العذب من فم ترى كيف صاغه الله .

كانت جيوش مجتاحة من الأفكار المتباينة تختلط بالتصوير الرائع المحبوب فى تقدير قيمة الزائرة ثم أسمع خطوات غير مفهومة ولا معلومة . فيها دبيب الموت ومعنى الركود . ثم ينقر خادم الباب فى خفة فأقف أمام المكتب فى فرحة ممزوجة بغيب قادم من واد سحيق مجهول .

رأيت الخادم تمتد يده إلى شق الباب الثانى فيعالج مزلاجه ويفتحه . قلت « نعم ! ! أنها بدينة . وإلى متى يقضى الله على عالم البدينات . إنهن يعشن فى مصر الحديثة . أثراً غالياً من فكرة الجمال المادى السمين الذى عرفته مصر المتوسطة وجعلت أقول لعقلى « أليس لها ابنة مودرن تؤثر فيها وتثنى أمها أو أختها أو جدتها أو قريبتها أو صديقتها هذه عما هى عليه من شحم ولحم » .

وشاء القدر ألا يطول بى التفكير . فوقع نظرى على منظر غريب غير مألوف لم أشهده منذ عشرات السنين . فقد مرضت أمى عليها الرحمة ورضوان الله . وأردنا أن ننقلها إلى مستشفى فلم يكن هناك بد من أن نحملها على كرسى وأن نضع الكرسى داخل المصعد ثم ارتفع بنا وعدنا فحملناها وأودعناها غرفة عاشت فيها شهرين إلى أن تم لها الشفاء من مرض قاس جبار وان كانت المنية قد أدركتها بعد ذلك بسنين وهى فى كامل الصحة والعافية .

رأيت أربعة من الخدم يحملون بين أيديهم كرسياً جلست عليه كومة من اللحم والشحم . وقد غطت وجهها بنقاب أبيض ثم وضعوا الكرسى وما عليه أمانة غالية بين يدى . وانصرف ثلاثة منهم ووقف إلى جانب الكرسى الساعى الأول وهو كما بينت — أولم أبين — طاعن فى السن . له ابتسامة عذبة لا تفارق وجهه الأسود الصبوح .

قلت « تشرفنا يا سيدتى » .

وانتظرت الجواب دون طائل .

قلت « هل تأمرين بشيء » .

وانتظرت الجواب بدون طائل .

خشيت ألا تكون قد نسيت أن فى العالم لغة عربية . فحدثتها بالإنجليزية دون طائل وكذلك بالفرنسية .

فامتدت يدى إلى سيجارة . وإلى عود ثقاب . وأشعلتها ورميت الفضاء الصامت بسحابها المتقطع يرتفع فى الجو على هيئة ملتوية ثم اتجهت والغيظ يكاد يقتلنى نحو صديقنا النوبى .

قلت له « ماذا أصنع مع هذا الآدمى المسكين . وبأى لغة أتفاهم معه . وهل هى طلبتنى باسمى يا رجل » :

قال « لا ! ! انها حضرت للجريدة وليس هنا محرر فى هذا الوقت إلا أنت . . . وأنت رجل طيب تفعل الخير للخير » .

قلت « ثم ماذا . وأى خير تريد : وهل هى فى حاجة إلى زوج ؟ » .

قال « العفو يا سعادة الأستاذ إنها تتكلم التركية » .

قلت « عظيم جداً . أرجو أن تصرفها . وعليها أن تحضر إلى بعد نصف عام . وأعدك بأن أتعلم التركية فى غضون هذه المدة .

حتى أحقق لك بغيتك أو فكرتك حتى تثق أننى أفعل الخير لمجرد الخير » .

قال « لا داعى فأنا أستطيع أن أقوم بمهمة الترجمة » .

قلت « وهل تعرف التركية » . .

قال « نعم ! ! وأنا أجيدها » .

قلت « وكيف كان ذلك » .

قال « لقد تربيت فى قصور ملوك مصر . وسافرت مع أمراء إلى اسطنبول » .

قصة المرأة عجيبة هى فى حاجة إلى معونة مالية من إحدى الجهات . وكان واجبى الصحفى والإنسانى يقتضى أن اعينها . إلى أن تمت لها خدمتها .

كنت فى غرفة أحد المحررين أبحث عن أمر . فسمعت حديثاً لطيفاً بين السعاة خارج الغرفة . سمعت الرجل النوبى المترجم يحدث رفاقه أو أحفاده على وجه التحقيق كان يقول لهم « الدنيا حظوظ » وأصابع اليد ليست واحدة . ويظهر أن الله خلقنا بعد أن قسم الأرزاق . فأنا رجل كبير فى السن . أقنع من الحياة بأن أصبح ملبياً لنداء هذا الجرس الأخرس . أحمل ورقاً إلى غرف المحررين . أو منها . انها مهمة مهما كانت سخيفة وقاسية . أو أحمل إليهم كوبة ماء أو فنجان قهوة أو ما إلى ذلك .

أو أنطلق خارج الجريدة أؤدى لهم عملا ماذا يريدون منى . وقد كنت أقوى منهم نظراً . أريد أن أقول أن عيونهم جميعاً فى حاجة إلى طبيب . لقد حضرت السيدة فلانه فلم يجدوا فى الجريدة من يفهمها فقمت بالترجمة فمنى اخذ مكانى على مكتب .

كنت أبتسم لهذه الفكرة الكبيرة كما يقول الإنجليز . وما كدت أخرج من الباب حتى انقلبوا يتحدثون فى رطانة بربرية . فصرخت فيهم « منذ الآن يجب أن تكون لغتكم الرسمية وغير الرسمية أثناء العمل هى العربية فأنتم قوم خبثاء تهاجمون المحررين بلغة بربرية ».

سكتوا وخرسوا .

وأمر اللغات أمر مهم فى الصحافة . والصحفى الذى لا يعرف لغه ويحسنها يلقى نوعاً من اضطهاد الحياة له .

فقد انعقد فى مصر مؤتمر دولى ضم خمسين عالماً من الغرب والشرق وكانت اللغة المتبادلة هى الانجليزية وكان يشهد المؤتمر أحد كبار الأساتذة الأجانب وكانت الأنظار جميعها تتطلع إليه وكان هذا العالم متواضعاً لا يحب أن يزعج نفسه بأبناء المهنة . ومن عجائب القدر أن نشرت صحيفة صباحية عدة صور له مع مصريين وشرقيين وكان يحفل بهذه الصور ويريد أصلها . وقد علم مندوب الجريدة بأمره فأحضر له الصور ولما أراد أن يشكره ولكن كان لا بد من مترجم بينهما فقمت بعملية الترجمة وأنهيت

إلى الزميل شكر الرجل على هذه الهدية التذكارية .

ثم تماديت وإياه — الأستاذ العالمى — فى الحديث وأخذت منه بيانات وثيقة عن حياته وعمله ومقترحاته وآرائه فى المؤتمر . وفى الصباح ظهرت الصحيفة وقد كتبت بالخط العريض الحديث الذى دار بين مندوبنا فى المؤتمر وبين العالم المذكور خاصاً بالصور وخرجت أنا بحديث قيم فنى لم تفز به صحيفة أخرى .

ويرى الصحفيون أن المهنة تقتضى منهم العلم بهذه اللغات . وقد رأى أحدهم أن يتعلم الانجليزية على يد زميل له وطلب إليه أن يدرسها له لتعينه على شئون العمل فقد يخشى أن يقابل أجنبياً ثم يفقد حسن ظنه به كصحفى . وإذن فعليه أن يعلمه الكلمات الأولية التى يحتاج إليها فى هذا الصدد .

بدأ يعلمه أنا ذاهب إلى المكتب . اخرج . تعال هنا . إلى غير ذلك .

وفى اليوم التالى بدأ الأستاذ يرى مدى تقدم تلميذه فى هذا الشأن .

فسأله « تعالى هنا » .

فأجاب « Come Here » .

فسأله « أخرج » .

فقال « Come here » .

فضحك الأستاذ وقال كيف تستعمل كلمة واحدة فى معنيين متناقضين . إستعملت كلمة النداء فى موضعها وكلمة الخروج فى كلمة النداء بالحضور كذلك .

فقال « المسألة بسيطة فى حالة طلب الخروج . أخرج أنا من الغرفة وأقول تعالى هنا » .

على أن من حوادث اللغات الظريفة . إن كنت مع صديق واستأذنته فى أن أغيب عنه فترة من الزمن اشترك فى أثنائها فى تشييع جنازة فقيدة . أم صديق عزيز على . واتفقنا أن نتقابل على « بار اللواء » وغبت ساعة ثم قصدت إلى « بار اللواء » فوجدت زميلى هذا يجلس ومعه زميل آخر يعمل معنا فى صحيفة واحدة ومعهما جندى بريطانى يحتسى ثلاثتهم أكواب الويسكى فى سخاء وإسراف . وما كدت أدخل عليهم حتى صرخ الاثنان فى صوت واحد « فلان » لاصقين اسم صحيفتى مقروناً باسمى تماماً . كأن الصحيفة أبى وأنا ابنه .

فظهرت على وجه الرجل علامات التقرز والامتعاض فانحنيت نحوه وحييته فقال « اسرع » وأخبرنى أين دورة المياه « قلت » إصعد هذا السلم ثم التفت يسرة وأدخل دهليزاً قصيراً تجد دورة المياه » .

إنطلق الرجل كالسهم .

وعدت أسأل الزميلين الفاضلين « من يكون هذا الرجل »

قالا « لا نعلم » .

قلت « وكيف عرفتماه » .

قال الأول « عرفنى به فلان بك أحد وكلاء الوزارات ثم انصرف وأنا لا أعلم الإنجليزية . وأردت مجاملته — أو إن شئت الحقيقة — أردت أن أغطى جهلى بالإنجليزية بأكواب الويسكى وقد فرح الرجل بغذاء البطن وأثره على غذاء الروح . إلى أن جاء صديقنا هذا وأشار إليه بأصبعه وكأنه ملك هبط من السماء . ليخرجنى من ورطتى وينقلنى وهذا الجندى إلى عالم الأحياء . فاذا به يعرف الإنجليزية قدر ما تعرف أنت من الصينية » .

وفى هذه اللحظة أقبل ضيفنا الجندى وبدأ يشكر الله على ان حضرت .

قلت له « لماذا » .

قال « من الساعة الواحدة وأنا أريد أن أذهب إلى دورة المياه . ولم أجد انسان يدلنى عليها .

وكنت أحب الانصراف ولكنى حبي للشراب حال بينى وبين ذلك . وأنا أفضل الويسكى على غيره من ألوان الشراب فآثرت الموت فى ظل الويسكى على الحياة تحت ظل الحديث .

ثم قال « أتحب الإنجليز » .

قلت « لا أكرههم » .

قال « أتكره الألمان » .

قلت « لا أحبهم » .

وجعلنا نتحدث فى السياسة والحرب فقال من عجب أننى سألت زميليك عدة أسئلة . فالجواب الذى يستحق النفى كان على لسانيهما اثباتاً . وما يستحق الإثبات كان على لسانيهما نفياً .

قلت « إنهما يعرفان الفرنسية ولا يعرفان الإنجليزية » .

وعرفت تاريخ الرجل فكان صحفياً فى بلاده ثم التحق بالجندية وأصابته شظية فى أعلى الرأس أوجدت عنده حالة يفقد معها الذاكرة فى بعض الأحايين . وصعوبة فى النطق . وقال إنه قد عولج وان وطأة المرض تتقشع حيناً بعد حين .

وانصرف الرجل بعد هذا على أن نتقابل فى صحيفتنا وأن نكون صديقين نتبادل الرأى .

قلت للزميلين أن الرجل سألكما عدة أسئلة . اجاباتها تتصل بالروح المعنوية ببلاده . ويظهر أنكما اسأتما إليه .

فقالا « لقد اتفقنا أن يكون الجواب مرة نعم . وأخرى لا ! ! وكان كلما فرغ من الكلام نهضنا واثقين بكلمة نعم فى دورها .

«ولا» فى دورها . دون أن نفقه شيئاً عن السؤال وما يجب أن يكون الرد عليه .

فقد شئنا أن يكون الجواب قسمة عادلة . ولم نرد أن نسىء إليه بحال .

* * *

كانت المدرسة القديمة لا تغرس فى نفوس أبنائها فضيلة الحرص على المال ولا ترغبهم فى البحث عن الذهب وإنما تعلمهم كيف يتقون مؤونه السؤال عن المادة فى سبيل الرسالة أو غير رسالة وهى رسالة تتصل بشئون هيأتهم الأقدار لها وهى رسالة طويلة عريضة لا نهاية لها ولا حد . ولهذه المدرسة مذهب حساس فى الحياة فأبناؤها يرون المال غلالة سميكة صفيقة . تحجب معانى النبل والإحساس عن النفوس . فان جعلوا همهم المادة والبحث وراء الذهب صرفتهم هذه الغريزة عن المهمة الشاقة الخطيرة التى يضطلعون بأعبائها نحو أمتهم ووطنهم الأكبر الإنسانية فى مختلف صورها ورموزها .

ولكن هذه الحالة النفسانية للصحافيين لا تحول دون أصحاب الصحف الذين يديرون صحفهم كمؤسسة تجارية غرضها ضخامة الأرباح . والرغبة فى تكديس ما يدخل منها فى خزائن . يعبد طرقها المالية الصحفيون المثاليون أو غير المثاليين .

وأذكر أن أستاذاً كبيراً فى الوطنية والإنسانية وفى الخلق والدين أيضاً مات دون أن يكون فى جيبه أو بيته ما يكفى لأن ترسل زوجته برقية لشقيقه فى الريف .

مات هذا الرجل وهو قوى الإيمان برسالته قوى الإيمان بخلقه ولم تصرفه المادة لأن يكتنز يسيراً يفيد صغاره من بعده .

كنت أحب هذا الرجل إلى أقصى غاية . وكنت أقبس النزعات الصوفية والعقلية التى عمر بها ضميره وفاضت بها أحاسيسه .

فكنت أجلس معه صباح يوم وقفة العيد الأكبر . وكان يجلس إلى مكتبه وقد خلع سترته وحسر أكمامه وبرز ساعده الأبيض مؤلفاً من عظم يكسوه جلد رقيق . ثم قال « ألا تؤدى لوحيدى الصغير خدمة بسيطة » .

قلت « ما هى ؟ وهل عندنا أعز من ذلك الصغير ؟ » .

قال « غداً عيد والولد فى حاجة إلى حذاء جديد . ولا أملك سوى قروش يمكن أن نشترى له بها « صندلا » فهل لك أن تدخل على قلبه الفرح » .

قلت « وهو كذلك . سأذهب وإياه إلى محل أعرفه ونشترى له ما يريد » .

قال « أنت حقاً ولدى الكبير وإنى لأرجو الله أن يعد فى

عمرك . وأحب أن تهب نفسك لهذه المهنة » .

ويظهر أنه أراد أن يمضى فى حديث طويل . غير أن أحد العمال اقتحم الغرفة وقطع علينا الحديث وقال العامل « ان زوجه طلبت منه أن يشترى لها بعض الحلوى وليس عنده مال . ويخشى ألا يشترى لها ما تريده فيحدث هذا فى نفسها أثراً بعيداً . خاصة وان لهم جارة تتحدث دائماً بنعمة زوجها عليها .

فدس الأستاذ يده فى جيبه وأخرج كل ما فيه من ثروة ودفع بها إلى العامل فخرج أخونا شاكراً وبقيت فى حيرة من أمر الرجل . وحارت فى عينى الدموع غير أننى ملكت أعصابى وبدأت أحدثه فى موضوع آخر .

ثم استأذنت وانصرفت .

انصرفت إلى بيته وصحبت وحيده الصغير واشتريت له حذاء لطيفاً وبدلة العيد . وحلوى . ولعباً ولما عاد أستاذنا إلى داره حمل الطفل الصغير بين يديه وقبله ووعده بأن يشترى له ما يريد .

وهنا دخلت زوجه وأنهت إليه النبأ فبكا . ولكن الحادث لم يفت فى عضده . وانما مضى فى سبيل رسالته أقوى مما كان . وأشد مما كان .

إستدعانى ذات يوم صحافى لامع . وطلب إلى معونتى فى العمل معه بعض ساعات من النهار . وأن تكون المساهمة فى قسم

الترجمة . واتفقنا على أن يكون المرتب عشرين جنيهاً فى الشهر . ووافقت على ذلك .

كنت حديث عهد بالصناعة . ومثل هذا المبلغ إغراء كبير . وأقبلت أترجم . وبعد أسبوع دخل على مدير الإدارة . ووضع أمامى ورقة بخمسة جنيهات . وإلى جانبها ايصال . .

قلت ماذا تريد .

قال « خذ هذا المبلغ من مرتب الشهر » .

قلت « ان الشهر لم ينته بعد . وأحب أن أتقاضى مرتبى آخر الشهر دفعة واحدة . لأننى أنظم حياتى فى حدود دخلى . ولا أريد أن يتسلل المرتب إلى جيبى — جنيهاً بعد جنيه — ولست اليوم فى حاجة إلى مال » .

خرج الرجل وعلى وجهه علامات تعجب لم أفهم شيئاً مما ترمز إليه على وجه التحقيق .

إنصرف . ثم استدعانى صاحب الصحيفة وما كدت أدخل عليه حتى وقف وأخذ يقبلنى ويثنى على ما أبديت من رأى . أضاف إلى ذلك اننى فى مركز ولده الذى يعمل زميلا معى ونجلس سوياً فى مكتب واحد .

وفى آخر الشهر ذهبت إلى صديقنا المدير لأتقاضى المرتب . فسلمنى خمسة وسبعين قرشاً .

قلت « ما هذا ؟ » .

قال « ليس عندى اليوم إلا هذا القدر » .

قلت « ليكن من نصيبك وسأرى ما يجب أن أفعل مع صاحب العمل » .

ودخلت على صاحب العمل وأنهيت إليه القصة فابتسم .. وربت على كتفى وقال « أنت فى مركز ولدى تماماً . وقد رأيت أن أفتح لك حساباً فى صندوق التوفير . وفى آخر العام يكون عندك مبلغ كبير من المال ... أليس كذلك » ؟

قلت « ليس كذلك ! ! فان على التزامات نحو صاحب المنزل ومن أعاملهم من أبناء ادم . وبنات حواء .

قال فى ثورة وعنف . وبعد أن ضرب المنضدة بيده ضربات شديدة حازمة « هذا كل ما عندنا فما الرأى ؟ » .

قلت فى سخرية واستهزاء انه رأيكم أنتم يا سعادة الوالد المحترم » .

قال « خذ المبلغ الموجود عندنا اليوم . وليكن الباقى ديناً نسدده عند ميسرة » .

قلت (الله أكبر ! ! الله أكبر ! ! المفهوم أن أتقاضى تسعة عشر جنيهاً وخمسة وعشرين قرشاً والباقى يكون ديناً عليكم . أتقاضى ثمانية جنيهات والباقى يكون ديناً عليكم . أتقاضى خمسة جنيهات والباقى يكون ... » .

وأردت أن أنال منه على هذا النحو. غير أنه قاطعنى فى شدة وقال « اسمع !! اسمع !! أيكما أخطر وأروع أنت أم الله سبحانه وتعالى » .

قلت « الله جلت قدرته » .

قال « انتهينا !! » .

قلت « لم أفهم شيئاً ولم نلته لا من قبل ولا من بعد » .

قال « وكيف أن الله ألف كتبا سماوية فى متناول الناس جميعاً . ثمن الكتاب عشرة قروش على أكثر تقدير . وأنت تترجم برقيات تلقاء عشرين جنيهاً . ألا ترى أن معاملتك على هذا النحو توجب أن تدفع لى ثمناً على نشر ما تترجم » .

قلت « ولكن الله سبحانه وتعالى لا يترجم عندك » .

قال « أنت كافر . وأنا سأصرف للمحررين جميعاً . وأكتفى بنشر الكتب السماوية فى جريدتى تباعاً . فاذا انتهيت منها عدت إلى نشرها من جديد ! » .

ثم سكت لحظة وقال « الصحافة كيس لا بد أن يملأ والقارئ لا يفرق بين التبن والتبر » .

قلت « إذن التبن أوفر وأرخص » .

قال « وهو كذلك » .

خرجت من مكتبه وأنا فى حيرة من أمر نفسى . ثم قابلت

زميلين يعملان وإياى فى قسم الترجمة وتحدثت واياهما فى الموضوع بعد أن شرحته على أكمل وجه . وأنبأتهما أننى سأترك العمل بعد مهما دفع الرجل لى من مال.. وان كرامة الإنسان لأسمى من كل شىء . وأغلى من كل شىء . .

فابتسم الصديقان . وقالا لى « هون على نفسك . فالأمور لا تعالج على هذا النحو والكرامة لا ثمن لها فى سوق العيش والخبز . وان الرجل مدين لنا بمئات الجنيهات . ولكن الصحافة شركة دائمة . عليك أن تؤدى وعليه أن يدفع فى حدود الطاقة . وهناك أمور أهم تستطيع أن تحصل بها على المال .

قلت « وكيف كان ذلك » .

قالا « زعموا أن سكة أبى زيد كلها مسالك . وأن جميع الطرق تودى إلى . . . روما » .

قلت « أعرف ذلك الزعم وأفهمه جيداً » .

قالا « أمعك الآن مال فى الجيب الوقور » .

قلت « نعم » .

قالا « إذن هيا » .

هيا إلى امرأة عجوز تعيش من بار متواضع غير معروف لا تبيع غير النبيذ الرخيص . فدلفنا إلى بارها . وشربنا ثلاث زجاجات من النبيذ القاتل وأكلنا جبناً وخياراً وعيشاً . ثم اشترينا

« طبلة » وذهبنا إلى الجريدة . وألفت نشيداً . ووقفنا ننشده على باب الأستاذ . فأخذ يفاوضنا فى أن نقبل ثلاثين جنيهاً فرفضنا وأخيراً دفع خمسة وأربعين جنيهاً .

خرجنا منتصرين — نحن الثلاثة — وكنا نحصل على القسط الأكبر من المرتب بعد القيام بهذه الزفة ومضينا فى عملنا إلى أن تعطلت الصحيفة عن الصدور . .

المادة لا أثر لها فى نفوس الصحفيين فى مجموعهم . وأن الحياة الفكرية التى يرزحون تحت نيرها وسلطانها لتدفعهم دفعاً عن كنوز الذهب والفضة وإن أحدهم ليفكر فى ساعات هادئة هنيئة بعد الفراغ من عمله على أن يؤدى واجباً اخر نحو غيره من الناس ولو كان من أقرب المقربين . وما تدفق مال فى جيب أحدهم إلا وفكر فى زملائه وأصدقائه يدعوهم إلى سهرة ممتعة أو جلسة لطيفة يغرقون فيها نفوسهم فى خضم من النسيان .

وإنى لأذكر حادثاً يمت إلى سيكولوجية المدرسة القديمة فى الصحافة بنسب شديد . فقد اتفق جماعة منهم على قضاء بضعة أيام فى الإسكندرية ولم تكن ميزانيتهم جميعاً قادرة على أن تتحمل نفقات يوم واحد فى الإسكندرية وفى فصل الصيف حيث يرتفع مستوى المعيشة غير أنهم اتفقوا على أن يقيموا أحسن إقامة وأن يمتعوا أنفسهم إلى أقصى غاية ولتفعل بهم الأقدار ما تشاء .

جلسوا ذات مساء فى بار معروف وأخذوا يشربون أفخر صنوف الخمر . وطالت بهم الجلسة ثم وقع نظر أحدهم على أديب صحفى كبير معروف كانت ثروته موضع الحسد والحقد من بقية إخوانه وكان يجلس إلى جانب جماعة من أصدقائه رجال المال والتجارة .

وكان هذا الأديب الثرى شغوفاً بنظرية داروين وأصل الأنواع وكان حريصاً على إثبات فكرة عدم وجود إله — والعياذ بالله —

انفلت الصحفى المتواضع من بين أصدقائه . وكان يملك مجلة أسبوعية عرفت بالقسوة والشدة وكان يخشاها الناس جميعاً على الرغم من أن العدد الذى تصدره فى الأسبوع قليل ولكن من مميزات صاحبها أن يدمغ الذين يتناولهم بدمغات ثابتات لا تمحى من تاريخهم مدى الحياة .

واتجه إلى الأديب الثرى وجلس إلى جانبه ثم همس فى أذنه انه وقع هو واخدانه (قد جلسوا وشربوا وأخذ الشراب بعقولهم فما عادوا يفكرون فى شىء اخر سواه وان صافى جيوبهم لا يكفى لسداد ربع ما طلبوا وشربوا . وانهم ينظرون إلى وجوده فى مثل هذه الساعة رحمة تداركتهم . وانهم جميعاً ينتظرون الغوث والمعونة والمدد من مبعوث العناية الصحفية إلى هولاء .

فمد الرجل شفتيه إلى الأمام وزمهما فى عنف وشدة وقال

لهم فى لغة سهلة واضحة- لا أستطيع أن أعاون جماعة يشربون الخمر ويسرفون فى الشرب . وهم جياع عطاش . ولو أنكم قلتم انكم تناولتم طعام العشاء . والمال فى جيوبكم قليل . لبادرت بالغوث والمعونة والمدد .

فانصرف الصحفى المتواضع . وجلس إلى منضدة قريبة منه وأخرج ورقاً وقلماً وجعل يكتب .. فقام الأديب الثرى . وقصد إلى الصحفى وقال له « أكتب ما تشاء . انك تريد أن تجرح كرامتى وتطعن شرفى وعرضى فى صحيفتك . ولكن ثق انى أرحب بذلك كل الترحيب ولا يعنينى من أمرك شىء ما ولكن لن أدفع لكم بارة واحداً ولو قتلتمونى » .

قال الصحفى « انك لا تساوى فى نظرى ثمن المداد الذى أكتب به مثل ذلك المقال . ولكننى أكتب الان فى أخطر موضوع . أريد أن أرد عليك فيما كتبت وسخفت فيه . أريد أن أثبت وجود الله بطريقة علمية حديثة » .

وهنا هجم الأديب على الصحفى . وأمسك قلمه بيد وأخرج حافظته بيد أخرى . ووضع بين يديه عشرين جنيهاً . على ألا يكتب فى الموضوع . فانفرجت بذلك أزمة الأصدقاء .

على أن المقابلة الأولى ظلت سيئة الأثر فى نفس صديقنا الصحفى المتواضع . فكانت إحدى المجلات العلمية الشهرية تكل

إليه أمر قراءة المقالات لتصحيح ما قد يكون بها من التواء فى الأسلوب. أو خطأ لغوى. وكان الأديب يؤثرها بنظرياته وكتاباته وعرضت على الصحفى « بروفة » مقال خاص بأن الله غير موجود. وأن الكون حادث بنفسه . فوجد الفرصة سانحة للانتقام فصحح المقال ثم أضاف فى نهايته لفظتين لا أكثر ولا أقل أساءت إلى المجلة وإلى صاحب البحوث فهدمتهما هدماً

أما اللفظان فهما « والله أعلم » .

كان هذا كافياً لأن يترك الأديب عمله فى الإسكندرية وهى مقره ووطنه ووصل إلى القاهرة ليناقش صاحب الدسيسة الحساب فلما عرفه الأمر منه على حقيقته أسقط فى جميع أعضاء بدنه لا فى يده وظل يضرب كفاً بكف ولكن الأمر كان قد انتهى ولله الأمر من قبل ومن بعد .

والتاريخ يحدثنا عما أهمله التاريخ . فإن مصر هى البلد الفرد الذى فكر أبناء الصحافة ورجال الأدب فيه أن ينصبوا عليهم زعيما فى البؤس . وكان المرشحان لهذا المنصب أديبين صحفيين ممتازين . فلما وقع اختيار الأدباء الصحفيين على واحد منهم بكى الآخر . وأقسم أنه أكثر من صديقة بؤساً . وأقسم بشرفه أنه شاهده ذات يوم يركب الترام ثم مضى يقول والدمع يتساقط من عينيه .

فهل ركوب الترام دليل على البؤس . إنه دليل على وفرة المال والنعيم .

فهب الزعيم وقال هذه حقيقة . ولكن أقسم لكم بالله العظيم انى أركب الترام من ناحية اليسار وفى مكان لا يرانى منه عامله فاتجه إليه منافسه وقبله على وجنتيه قبلة الإخلاص والولاء والطاعة وقال « الآن أنا مرتاح فأنت أكثر منى بؤساً . وأولى منى بهذا المنصب » .

والناس يتأثرون بهذا الوضع السيكولوجى لرجال الصحافة حتى أبسط الناس فى الحياة . فقد ألقيت فى أذن أحد ماسحى الأحذية . ان الصحفيين قوم لا يفكرون إلا فى أنفسهم وإنهم يجمعون المال ويكنزونه فى جيوبهم . ولا يسددون ما عليهم من ديون . فعليك أن تلاحظ ذلك فى معاملتهم وأنت رجل فقير أولى الناس بمالك وجهدك .

وأقبل شاب صحفى موفور المال . وطلب إلى ماسح الأحذية أن يمسح له حذاءه . فطلب منه العامل أن يدفع له القرش قبل أن يباشر مهمته لأن الثقة معدومة . وقد احتدم الجدل بين الاثنين فى مقهى عام وكان المنظر كافياً لأن يبعث الضحك فى النفوس . وكان الحوار قاسياً شديداً . وأخيراً تداخلت فى الأمر

وتظاهرت بجهله على أن أقوم أنا بسداد القرش وكفى المؤمنين القتال .

شاهدت مصرع صحفيين . أحدهما كان يخطب فى دار سينما فى اجتماع سياسى . وما كاد ينتهى من خطابه . وتدخل أذنيه عاصفة من التصفيق حتى تراخت أعصاب الرجل وسقط على الأرض جثة هامدة لا حركة فيها ولا حس . فأقبلنا عليه نبحث فى جيبه فلم نجد سوى عشرين قرشاً وساعة ذهبية أثرية أهديت إليه من صديق وفى .

والحادث الثانى لصحفى وقف يخطب بين زملائه فى جمعية عمومية وأخذ يدافع عن مصالحهم فى صوت رائع شديد عاصف . وما كاد ينتهى ويتلقى تصفيق الرضا والاستحسان . حتى أخذته حشرجة الموت وفاضت روحه إلى بارئها . ولم يكن فى جيبه سوى عشرة قروش أو يزيد بقليل .

هؤلاء هم الصحفيون الذين يهزون العروش بأقلامهم ويقيمون دولة المال ويقعدونها بإيمانهم وإخلاصهم . وهذه هى نهايتهم وغايتهم فى الحياة . إن جنون الصنعة ليبلغ بهم مبلغاً بعيد المدى . وأنهم ليرقون مدارج الزهاد والمتصوفين . . . .

ومن عجب أن الثورة النفسية القائمة بين صاحب العمل

والأجير فى مضمار الصحافة لا أثر لها على الإطلاق فى العلاقات القائمة بين الاثنين .

وكم نشأت على يدى مجلات رسخ قدم بعضها . ومات بعضها .وكنت أعجب لميزانية كل واحدة منها . فإن منشئها يضع الأرقام الخاصة بالورق والمطبعة والنفقات الأخرى وإيجار الشقة والنور والماء والخادم . ثم يضع أمام التحرير رقماً خطيراً يضع أمامه « صفر » ذلك أنه يعتمد على أصدقائه وعلى زملائه فى تحرير الأعداد الأولى إلى أن يستقر فيظل على حاله . أو تموت فلا موجب للسداد . ومهما يكن فهى فريضة ذكاة القلم .

* * *

الصحفى رجل طيب القلب مطموع فيه من الناس جميعاً ولست أدرى علة ذلك . مطموع فى ماله وفى جهده . وعافيته .

استدعانى صديق أعزه وأحبه وهو من كبار موظفى وزارة المعارف بعد ابتداء الحرب الطاحنة بين الديموقراطية والنازية وقال إنه يريد إصدار مجلة للطلاب فى المدارس الابتدائية والثانوية . فأجبته فى صراحة إن إصدار المجلة فى هذه الظروف أمر عسير فالورق غير متوفر والمطابع غالية الأجور .

فأجابنى بأن قسم الدعاية والنشر فى السفارة البريطانية سيعمل على مساعدة المجلة ويمدها بالورق ويطبعها على نفقته ويعد لها

المكتب والخدم وكل الميزانية . ثم نتقاضى منه مرتبات شهرية وإنه لا يريد أن تكون المجلة دعاية مطلقة وإنما يريد أن يفتح أمام عيون الطلاب فى الشرق أبواباً حرة للقراءة والاطلاع بعد أن تبين أن النازية قد أعدت كتباً للقراءة الحرة وأن هذه الكتب ستختفى من الأسواق بطبيعة الحال . ومن العدل أن نعد مثل هذه المجلة رغبة فى عدم حرمان الطلاب من موضوعات علمية وأدبية .

ووافقت على العمل معه . واتفقنا على أن تصدر مرتين فى الشهر ثم سافر صديقى إلى بغداد فى مهمة قضى فيها عاماً وألقى على حمل المجلة . وقام بأعمال السكرتارية موظف كبير آخر بالمعارف وكان مرتب الصديق ثلاثين جنيهاً نوافيه بها فى بغداد دون أن يخط حرفاً واحداً . وكان مرتبى عشرين جنيهاً فى الشهور الأولى على أن تزاد إلى خمسة وعشرين بعد أن تستقر المجلة .

بدأنا العمل . واتسع أمامنا وكنا كل يوم نتلقى طلبات جديدة من مصر والشام ولبنان والعراق وفلسطين وشرق الأردن والسودان وكان النجاح منقطع النظير .

ولما عاد الصديق من غيبته استقبلنى بالعناق وعبارات الشكر البليغ . وهممت أكثر من مرة أن أطلب إليه تعديل المرتب بعد هذا النجاح الذى لمسه هو بعينه فى البلاد العربية التى مر بها غير أن حالة نفسانية كانت تملك لسانى فلا استطيع النطق .

وبعد ثلاثة أسابيع قال لى « إن العمل قد خف عليك » .

قلت « نعم » .

قال « إذن ليكن مرتبك عشرة جنيهات » .

قلت « ليكن » .

ثم تركت الصحيفة دون أن أقول له خيراً أو شراً . ومن عجب أن يتضاءل العدد بعد ذلك وأن يهبط على صورة مزعجة .

طويت هذه القصة بين حنايا ضلوعى وقلت لعقلى « أسكت أيها المسكين لقد أصبح هؤلاء الموظفون الأغنياء الأثرياء صورة طبق الأصل من المشتغلين بالصحافة . وإنهم قد هبطوا بمنطقهم إلى منطق أبناء المدرسة القديمة .

وليس هذا أمر عجيب . وانما هو وضع كثير الحدوث والتكرار فى الميدان الصحفى وقد تخرج أحد أبناء شقيقتى من كلية الآداب . والشقيقات كثيرات — ولله الحمد على ما أنعم — وأولاد هن أكثر وبناتهن أقل حتى لأعجز عن معرفة أسمائهم وأسمائهن جميعاً . وان الواحد منهم لأقابله فى الطريق فلا أعرفه إلا إذا تقدم منى وقال أنا فلان ابن فلانه فأقبله وأدعو له بالتوفيق ثم الزواج وإكثار البنين والبنات .

آثر هذا الشاب الصحافة . اختارها عملا له — وأنا لا أريد أن أرسم للشباب طريقاً يسلكه فى الحياة — واشتغل فى صحيفة

يومية صباحية حزبية. ومضى عليه ثلاثة شهور وهو تحت التجربة والاختبار ثم أنهى إلى أمر الاختبار وأنه قد طال . وطلب مني أن أحادث صاحب الصحيفة في شأنه وشأن زميلين له من معهد الصحافة يعملون ثلاثتهم وينتجون . وانهم يريدون تحديد موقفهم من العمل .

وكان لي صديق انجليزي دعاني إلى تناول الشاي معه في فندق « مينا هاوس » وعند ما دلفت من الباب وقع بصري على صاحب الصحيفة المذكورة . فقد جلس وإلى يمينه ويساره عدد لا بأس به من بنات حواء . وتصنعت عدم رؤيته ويظهر انه خشي أن أكون منصرفاً عنه لسبب فدعاني وقدمني إلى صديقاته . ودعاني متفضلا أن أتناول وإياهم الشاي . فاعتذرت لأن فلاناً قد دعاني لهذا الشراب من قبل .

فلمعت في وجهه نسمات فرح وسرور وقال أريد أن أعرف هل لك أن تقدمني إليه .

قلت « ولم لا » !!

استأذن من صديقاته فترة من الزمن . وتم التعارف ثم انتقلنا إلى السيدات وجلسنا نشرب الشاي سوياً . وكانت جلسة ممتعة حقاً ورأيت الفرصة سانحة ففاتحته همساً بموضوع هؤلاء الشبان فقال في هدوء « سأفعل من أجلهم ما يرضيك » .

زارنى الشاب فى المساء . فانهيت إليه أننى فاتحت صاحب العمل وأنه وعد بحله بما يرضينى .

خرج الشاب من غرفته وذهب إلى عمله . وأعد ما عنده من أنباء ومقالات وبعد ثلاث ساعات عاد ونظر إلى ثم قال .

« قابلت صاحب العمل وقد بدأنى بالحديث وانه رأى فى سلوكى ما لايتفق وخلق الصحفى . فأنا أفشى أسرار العمل فأجبته بأن الذى خاطبته فى الأمر ليس غريباً عنى وانما هو فى مقام والدى خاصة وإن أبى مات من زمن بعيد وهو الذى يكفلنى بالرأى والنصيحة واننى أرجع إليه فى كل كبيرة وصغيرة . فقال على العموم إن هذا السلوك أعتبره منافياً لأصول المهنة واننى لا أستطيع العمل معك من الآن فتركته وانصرفت غير آسف على شىء » .

قلت « خيراً صنعت » .

واتخذ طريقاً آخر فى الحياة غير الصحافة .

* * *

والصنعة لا تعرف ضابطاً ولا مقاييس . وإنما تقاليدها موروثة لأنها حرية الحريات . والحرية لا تعرف القيود ولا تعرف الضوابط . وإنما تتلون وفقاً للزمن . فإن وقفت لم تعد حرية . وإنما تصبح قيداً . وهى تندفع فى كل مكان . لا تعرف سبيلا

بعينها . وانما تتسلل إلى الأحجار وتنساب فى السهل . وترتفع إلى السماء وتهبط إلى الأرض . وتنام وتستيقظ . ذلك أن مهمتها وغاياتها جليلة رفيعة .

وكل شيء حر يعجب الناس . وان كان القائمون بأمره يتعبون منه . ويشقون به فقد اجتذبت الصحافة شاباً بريئاً له مستقبل لامع فى الجامعة وترك وظيفته وفضل العمل فى مضمار الصحافة واتفق مع صاحب العمل على مرتب كبير يعوضه هذا المستقبل اللامع فى ميدان العلم والأدب وفضل أن يكون أستاذاً لمئات الألوف من الناس كل يوم . على أن يكون أستاذاً لعشرات المئات من التلاميذ كل عام .

ثم مضى فى عمله ويظهر أن الصحيفة استكثرت المرتب فبدأت تتحين الفرصة لتقصيه عنه على شرط ألا يكلفها هذا دفع التعويض المنصوص عنه فى العقد المبرم بين الاثنين . وشاءت الظروف أن تتناول إحدى الصحف التى تتفق مع الصحيفة من زميلتنا فى الظهور موضوعاً له خطره وكان لهذا الأستاذ الناشيء رأى معين الموضوع فادلى به كتابة للصحيفة إذ كان من رأيه ألا ينقل ميداناً فتحته زميلة إلى ميدان صحيفة وإنما من الواجب ومن الكرامة أن يساهم برأيه فى الميدان الذى فتح حراً لأبناء البلاد . غير أن صحيفته رأت فى ذلك مخالفة للقواعد المرعية وأبلغته

نبأ الاستغناء عنه لأنه خالف نصوص التعاقد .

هى حجج فقط — لا أكثر ولا أقل — والقضاء دون شك يتعب فى وضع المقاييس والضوابط التى تحكم أصول هذه الصناعة .

* * *

على أن المهنة لا تؤثر فى محيطها الأسماء الضخمة إلا فترة وجيزة وإنما تعرف موهبة نادرة صقلت من جوهر الطبيعة ولكن حدث أن بعض الصحف الحزبية لجأت إلى أسماء معروفة فى محيط الأحزاب فوكلت إليهم الإشراف على شئونها .

هذه الأسماء يستطيعون أن يمضوا بها قدماً نحو الرقى . والرقى فى نظرهم كثرة المطبوع ووفرة التوزيع .

اعتمدت إحدى الصحف على شخصية لامعة الاسم . وكان من دأب صاحب هذه الشخصية أن يستدعى محرراً يملى عليه المقالات والمحرر يدون وكان صوت الرئيس ضخماً فخماً يهز ارتفاعة جنبات مبنى الجريدة وكان يملى كأنه يخطب الجماهير المحتشدة فى ساحة طويلة عريضة وقد عرفت صحيفة منافسة لها فى الرأى ومعارضة لها فى السياسة عن رئيس التحرير الجديد ذلك وكان أمره شائعاً فى دوائر الصحفيين .

فكانت توفد محرراً منها يقف على السلم وفى مكان بعيد عن

العيون والأنظار وينقل إليها خطاب صديقنا ثم تظهر فى الصباح وقد نشرت له مقالة وفى ذيله التحقيق والرد . وكان صديقنا يبحث وينقب عن الذين ينقلون إليها مقاله بالحرف الواحد . وكانت العقوبة توقع على العمال والمحررين كالموت الذى يخبط خبط عشواء . وأخيراً عرفت الدسيسة فاستغنت الصحيفة عن صاحب الاسم الطويل العريض ولكن بعد أن مهد هو قبرها بنفسه . ووسدها التراب فاستراح واستراحت .

وعمال الصحيفة أنفسهم لا يعرفون أثناء أداء واجبهم الاحترام اللازم. نحو أصحاب الرتب والألقاب فلا ينطقونها مقرونة بألقابهم . وإنما تسمع أصواتهم تلوك الأسماء سافرة . فتسمع مثلا فى « ورشتهم » وهم يريدون إنجاز عملهم « طلع الملك فوق » « خلصنا من رئيس الحكومة » «آخر وزير الزراعة» إلى غير ذلك .

* * *

رسالة مستمرة دائمة . لا تعرف السكون ولا الركود . وانما متصلة الحلقات . فلا تعرف الإحالة إلى المعاش . ولا راحة لأبنائها وهم راضون بهذا الواجب قانعون . يقبلون على أعمالهم فى رضا واطمئنان . وهم نحل يسقط على الزهر أينما كان يمتصه ويخرجه عسلا مصفى لمواطنيهم وغيرهم هنا وهناك فى مختلف الممالك والأقطار.

يؤدون واجبهم وليس له زمن موقوت ولا ساعات محدودة فى الحر اللافح والبرد القارص انتهيت من عملى ذات مساء قبيل منتصف الليل بساعة إلا قليلا ثم أقبل على صديق وأخبرنى أن البوليس يعد حملة كبيرة على بيوت ذوات السمعة الرفيعة فى الرابعة بعد منتصف الليل . فرأيت اتخاذ التدابير لأن أكون جندياً فى صفوف الحملة . وتم لى ما أردت . على أننى أحب أن أقول كلمة فى هذه المقالة.هى أن رجال البوليس أكثر الناس فهماً لطبيعة العمل الصحفى . ويرون الصحافة جزءاً لا يتجزأ من طبيعة عملهم . وانهم — رجال البوليس — يعاونون الصحفيين ما وسعتهم المعونة . قضيت الليل كله ساهراً ثم شهدت التحقيقات الأولية إلى الساعة السابعة صباحاً . وخرجت ببحث طويل عريض عن المجتمع . وبأسرار طريفة طلية عن حياة فتيات هذه الطبقة ومثل هذا البحث له أثره فى رفع المستوى الخلقى فى البلاد . وفى الساعة الثامنة قصدت إلى دار المحافظة حيث شهدت تنفيذ الحكم بالإعدام فى شقى كان لجريمته أثر فى الرأى العام وفى الساعة الحادية عشر كنت فى استقبال جلالة الملك وهو يفتتح مؤسسة قومية . ثم قصدت إلى أحد الوزراء وكان بيننا موعد مضروب من قبل وفى الثالثة شهدت مباراة فى التنس . وفى الخامسة أقيم اجتماع خاص كبير لحملة سياسية معينة . وفى السابعة كنت فى

مكتبي أعد كل الكتابات الخاصة بمحصولى اليومى . وأنا أعلم أن التأجيل أمر عسير .

هذه الصورة لا تحدث كل يوم ولكن الصحفى عرضة لها . وهى متوقعة الحدوث . من ذلك ترون مدى ما يلقاه الصحافيون من متاعب. ويقابلهم من صنوف العمل المتباينة المنوعة . وتنقلهم من عرض إلى غيره . دون أن تعرف شيئاً عن جهودهم اليومية فى سبيل الواجب الذى هيأتهم له الحياة .

فالصحفى لا يمر بهذه الألوان المتباينة المنوعة كغيره من الناس . وإنما يتفاعل معها بحسه وروحه . وينظر إليها فى يقظة بنظرات عميقة فاحصة فليس كل ما يقع تحت حسه قابلا للنشر والإذاعة فى الناس وإنما هو يتخير الصالح والمفيد .

ولا ينظر الصحفى إلى الأمر الواحد نظرة معينة كغيره من الناس وإنما ينظر فى الأمر بمختلف وجوهه . فهو سلطة القبض والضبط والربط وسلطة النائب العام فى التحقيق . وسلطة الاتهام والدفاع وسلطة القضاء . ويقوم بهذه الأشياء جميعاً فى وقت واحد . فانظر عبء هذه المسئولية التى تقع على كاهله وخطورة العمل الذى يقوم به .

فهل هو شقى بذلك أم به سعيد .

مهما يكن من شىء فإن الشقاء الذى يحسه . إنما يبعث فى

نفسه صورة من السعادة وإن الظلام الذى يعيش فيه يلقى فى قلبه نوراً من الغبطة والابتهاج . وان العذاب الذى هو ملاقيه . إنما يدفع إلى فؤاده ارتياحاً وسكوناً . وهو يدور مع الحياة وجوداً وعدماً ولكنه لا بد أن يعود من رحلاته بشىء وأشياء فالغواص الذى ينزل إلى قاع المحيط . لا يضيره إن وجد لؤلؤاً أو محاراً . ولكن الصحفى إن نزل إلى قاع المحيط يخرج دائماً بلؤلؤ ولا يعرف المحار . وإنه يهىء دائماً الغذاء الطلى الشهى لعملائه من الناس : هو آلة متحركة لا تعرف السكون ولا يبلغ سمعها الهدوء . وإنما هى ماضية فى أداء واجبها على نحو من القسوة والشدة والعنف وبعد ذلك يقول فريق من الناس « ليتنا كنا مثلكم معشر الصحفيين » .

ولا يعرف الشوق إلا من يكابده .

من من الناس يستطيع أن يرتدى ثوبين فى وقت واحد ثوب حزن وثوب فرح غير الصحافى المسكين .

من من الناس يتفاعل مع هذا الوجود كله . فى اللحظة الواحدة بكل عاطفة جارحة سوى الصحافى المسكين .

ومن من الناس يقدر لهذا الجندى المجهول هذا العمل الكبير الخطير . إنهم ولا شك قليلون .

* * *

الصحفى أكثر الناس فهماً لحقائق الأشياء وطبائعها . وأنه

لا يقع على الحقيقة سافرة ولا يضيق صدره عن أخطاء الناس ولا أخلاق الناس . وكم من مرة يذوق العسل والعلقم فى كأس واحدة .

كان لى صديق يزورنى بين الفينة والفينة وكانت أكثر ساعاته سعداً أن يجلس إلى مكتبى زمناً طويلا وكم من مرة قدم إلى تقريراً لأجتزء منه فقرة وكم من مرة رجانى فى أن أشير إلى كتاب أصدره أو كتاب لصديق له . أو نبأ يهمه أو يهم أصدقاءه . وكنت دائم الاستجابة . وكان يعتز بهذه المعونة وتلك الصداقة . ثم شاء القدر أن يرتقى أسمى المناصب عن طريق شهرة مهدتها له الصحافة وعبدت طريقها أمامه .

وما كدت أنهى إليه أمر ترقيته حتى أحسست أنه يرقص ويدور ويلف فى بيته . حول نفسه وحول أسرته كنت أتصور هذه الحركة الجنونية من صوته ونبراته تنقلها آلة التليفون . ثم ألقى بالسماعة وأبدأ العمل فإذا بزوجه تعود وتسألنى حقيقة الأمر فأؤكد لها أن القرار قد صدر وهى لا تريد إلا أن أصف لها كيف صدر الأمر . كأنه أمير زار منشأة وهى تريد أن أصف لها كل حركاته وسكناته فابتسم ثم أصف لها كيف سمعت النبأ . وكيف قرأت القرار .

ثم ينشر فى الصحيفة فى الصباح . وأذهب إلى الصديق فى

العاشرة لأقوم بواجب التهنئة . فأقابل سكرتيره الجديد . فيحمل البطاقة ثم يعود بعد دقائق ويقول سعادة البك مشغول الآن وسيذهب إلى معالى الوزير بعد لحظة فهل تريد أن تقابله فى أمر هام ضرورى . هل أستطيع أن أعرف عنه شيئاً فأقول إنما أردت أن أهنئه على هذا المنصب الجديد فيقول فى بساطة سأرفع إليه ذلك .

أنصرف دون أن أثور أو أحتج ذلك اننى أعرف الحقائق سافرة والأخلاق سافرة .

ولله فى خلقه شئون .

أليس فى كذلك ؟

* * *

يا نفس لا تثورى ولا تحزنى فأنت أدرى النفوس بطبيعتك وأنت أكثر النفوس علماً بأمرك . واقنعى من هذا الوجود بما أنت فيه . واذهبى مع القدر حيث شاء واستقرى مع القضاء كيفما أراد . ولا سلطان لك على غيرك من الناس .

وأنت أيها القلم المسكين ! ما ذنبك مع هؤلاء الناس جميعاً تشقى معهم ولا تسعد؟ وصريرك إنما هو بكاء دمعة يعصرها قلب وتدفعها جارحة وكتاباتك تصوغها من ألم وعذاب وشدة وبأس شديد .

أنت معذب حيثما كنت . تضنيك أسرار الكون . وأنت كالجبل

تصدم بك الريح الصرصر العاتية وتسقط على قمتك الأمطار الوافرة الغزيرة . غير أن لك يوماً تزول فيه وتنتهى . فقد تتحطم وألقى غيرك . وقد تضيع فيلقاك غيرى ولكن هل ينظر إليك الناس نظرة مثل التى أنظرها إليك يا شريك الحياة و يا وفى العمر وصديق الأبد . أنت الثروة الطائلة التى ورثتها من الحياة . وأنت الحياة بمعانيها وألوانها وصنوفها وشكولها التى أحببتها وقدستها وعبدتها فإن أسعدوك فأنت صاحب السر فى السعادة وإن سخطوا عليك فإن الذنب كله يقع على وحدى . فاغفر لى واصفح عنى .

أتعرف أيها الصديق الوفى يوم أن تلقيت رسالة من أحد أصدقائى يصف فيها دخول فرقة من جيش محتل قطعة من أرض الوطن . ولم يكن الصديق يعرف أن للرسالة أثراً كريماً فى خدمة أبناء هذا الوطن ثم ألحق وصفه بصورة فوتوغرافية للجنود وهم يدخلون وللقوات المصرية وهى تخرج .

أتذكر يوماً أن أوحت إليك هذا الحادث أن تكتب فى الموضوع وأن تصف الحقيقة التى وقعت عليها . ثم يصدر بلاغ رسمى بأنك كاذب إنك لم تكذب ولا حاجة بك إلى الكذب .

صدر بلاغ رسمى بأن النبأ مختلق وفى الصباح نشروا البلاغ بحكم القانون تحت ثلاث صور شمسية تبين دخول الجنود وخروج القوات . وأخرى للأهلين وهم يشهدون المنظر باكين

وتحت هذه الصور بلاغ رسمى بأنك كاذب ملفق مخترع .

أو تذكر أيها الصديق الوفى يوم أن وقعنا سوياً على عدة تقارير . ونسقنا بينها . وصغنا منها نبأ يضم عدة رؤوس بمسائل ذات أهمية وقد أثار النبأ ضجة فى أكثر من دائرة مصرية وغير مصرية . ثم صدر بلاغ رسمى بأنك كاذب . وإن نسج الخيال غريب فى هذا المقام تم نشرت البلاغ بحكم القانون ولكن الصحف الأخرى بدأت تناقش السياسة مقتبسة من هذه التقارير فقرات بأقلام أصحاب الذين أصدروا البلاغ الرسمى ثم جعلت تناقشها .

أنت تعرف كل هذه الأسرار .

وليتك تستطيع أن تكتب دون حاجة إلى يد تقبض عليك . وتديرك على الورق . ودون عقل يحرك فيك ألوان والبيان ودون حاجة إلى عاطفة . لو كنت تعرف ذلك لتركتك تكتب تاريخاً آخر لهذه الأحداث التى مرت بك . ولهذا التاريخ الذى يضم تراثاً متناثراً من الفضائل والرذائل . من الأحزان والأفراح .

قد قست معك الأقدار كثيراً ولكنك صابر وغافر . فكثيراً ما بلغ صبرك القمة . وأذرى بصبر أيوب . وكثيراً ما غفرت لأولئك الذين أساءوا إليك وأساؤوك . أتذكر يوم أن قابلت معى أحد الوزراء . ثم تحادثنا فى عدة شئون . نسجت منها حديثاً . ثم قامت الدنيا وقعدت . وأنكر الوزير الحديث وصدر بلاغ رسمى

ولما ناقش رئيس التحرير الوزير بعد صدور البلاغ أجاب ببساطة انه لم يكن حديثاً للنشر وانما « دردشة » لا أكثر ولا أقل وكثير من الناس لا يعرفون مهمة الصحافة على وجه الدقة فليس معقولا أن يقابل صحافى وزيراً أو غير وزير أثناء ساعات العمل ثم تمتد بهم الجلسة ساعات وساعات وتنتهى المسائل إلى وضع شاذ غريب هو « دردشة » .

قابلت ذات يوم صديقاً كريماً وعزيزاً . وكان فى يده أمر الإشراف على معاهد القاهرة العلمية وكانت وسائل المواصلات تشغل الناس وخاصة أولياء أمور التلاميذ . ولا سيما الفتيات . وسألته عن التدابير التى اتخذتها وزارة المعارف لعلاج هذه المسألة .

العام الدراسى بدأ منذ أمد غير قصير وكثيراً من التلميذات والطالبات لا يجدون وسيلة للذهاب إلى المدرسة أو العودة منها فأجاب بأن هذا ليس من مهمة الوزارة . ونحن مستعدون لأن نعلم من يصل إلى الفصول :

كان رده هذا كافياً لأن أنشر مقالا حملت فيه على المعارف وكان يتولى أمرها وزير اشتغل بالصحافة وله فيها ماض طويل وعريض وفى الساعة العاشرة وجدت الرسل والات التليفون تسأل عنى فى كل مكان . وان معالى الوزير يريد مقابلتى . ما كدت

أدخل حجرته حتى استدعى وكيل الوزارة والموظف الكبير.

قال معالى الوزير « فلان بك ينكر هذا الحديث » .

أجبت « قد دار الحديث بينى وبينه » .

قال « انه ينكر ذلك . وقد استدعيتك وها هو أمامك قبل أن أكذب » .

قلت « لقد حدث هذا تماماً » .

وهنا انفعل الموظف الكبير وقال « لم يدر بينى وبينه حديث ولم يعرضه على لإقراره . وانما كان سؤالا وجواباً قصيراً وبسيطاً » .

وهنا قال الوزير « إذن . لقد أكرمك كل الاكرام . فالصحافى لا يريد سوى لفظة من اثنين : نعم ! ! أولا !؟! » فالموضوع الذى يسأل عنه مهيء دون ريب فى رأسه ويريد فقط النور » .

وانتهت المسألة بسلام . بسلام لأن الوزارة حلت الموضوع . وبذلت فى سبيل تحقيق رغبات أولياء الأمور جهداً تم فى يوم واحد . وعدت فى الصباح فشكرت لها حسن الصنيع .

* * *

الثقة رأس مال لا ينفد . والصحفى الأمين جزء من الدولة تماماً . لا ينفصل عنها ولا يتجزأ .

وهو معرض للخطر . ولا تقف مهمته عند أداء واجبه فى حدود الأمن والسلامة . بل أن الظروف تقتضيه أن يلقى بنفسه

فى أحضان الخطر ويعرض حياته للموت .

وانى لأذكر يوماً عصيباً . قام فيه طلاب جامعة فؤاد الأول بمظاهرة إحتجاجاً على تصريح أحد وزراء خارجية بلد أجنبى . ثم علمت أن رجال البوليس قد اتخذوا العدة لوقف هذا التظاهر والحيلولة بين جموعهم وبين الوصول إلى العاصمة . فأنهيت إلى الطلاب الأمر ورجوتهم أن يتدبروا حالهم وان يكتفوا بالتظاهر داخل حرم الجامعة وأن يبرقوا إلى من يشاؤون من المصادر فى مصر وخارج البلاد . غير أن روح الحماسة كانت قد بلغت بهم مبلغاً شديداً . واتفقوا على أن يموتوا جميعاً فى سبيل فكرتهم . وما كادوا يمرون فى مظاهرتهم من كوبرى عباس حتى بدأ الرصاص إرهاباً . ثم انقلب إلى رصاص يصيب وقتل منهم أكثر من واحد . كان الرصاص يتطاير من فوق رأسى وأنا أشهد المعركة لأكون أقرب الناس وصفاً . ولولا عناية الرحمن . ولولا القدر الذى يحفظ من فى أعمارهم بقية لكنت أول من صادفته الرصاصات الأولى .

وفى يوم آخر إستدعانى سكرتير الجامعة العام وأنهى إلى أن طلاب إحدى الكليات قد حاصروا عميدهم فى مكتبه وأنهم أقسموا أن يظل فيها إلى أن يصدر مجلس الوزراء قراراً بإجابته مطالبهم . وأن الإنسانية تقضى على أن أساعد الجامعة فى فك الحصار عن العميد .

قلت « وماذا تطلبون منى ؟ » .

قال « إسبقنا إلى الكلية وابذل جهداً فى دخول الباب العمومى . ثم أبلغ الطلاب أن مجلس الوزراء مجتمع . وأنه ينظر فى مسألتهم غير أن الوزراء يرون فى إجابة المطالب تحت سلطان التهديد والوعيد عملا لا يتفق وكرامة أية حكومة . فاذا خلد الطلاب إلى الحكمة . اجيبوا إليه » .

ثم قال « وسنلحق بك بعد نصف ساعة » .

خرجت من مكتبه على الفور ثم ذهبت إلى الكلية المذكورة فوجدت حصاراً من الجنود . وقد رفعوا بنادقهم . وأمسكو بعصيهم . فوجدت الطلاب فى حركة ثائرة وفوران شديد . وقد أغلقوا الأبواب واعتصموا بسطح الكلية . وأمسكوا بخراطيم المياه وبقطع الحجارة والأخشاب يوجهونها نحو من يحاول اقتحام أبواب الكلية .

وقفت أمام الباب بعد أن وقف رئيس الجنود بمهمتى وخطورتها فقال إنى أخشى عليك من الإعتداء قلت قد يصيبنى حجر أو أكثر ولكن مصير هذا الرجل معلق بأفواه قوم ثائرين فسمح لى . وقفت أمام الباب وهمست فى أذن الواقفين أمامه وازحت الستار عن شخصيتى ورحبوا بى وفتحوا الباب ثم ألقيت بالنبأ إليهم فالتفوا حولى . وجعلوا يستذكرون الموقف على

ضوء هذا البيان . ومن حسن الحظ أن العقل والحكمة والروية كانت رائد هؤلاء الشبان فبدأوا يتركون حجرة العميد وكانت تضيق بجموعهم فلا موضع لقدم ولم يزد العميد بينهم عن قطرة فى محيط ثائر تروح وتغدو فيه أمواج ثم فتحوا باب الكلية وبدأت جموعهم تتجه إلى المدرج الكبير يخطبون ثم أراد العميد الإنصراف فهمست فى أذنه ان اتئد قليلا إلى أن تصفوا نفوسهم وتهدأ ثائرتهم وإلى أن يصبحوا جميعاً يداً واحدة فى هذا الرأى .

ثم أقبل بعد ذلك عميد كلية أخرى وهو خطيب ممتاز ومحدث مبرز فى فنون الأدب والخطابة وإلى جانبه سكرتير الجامعة فجعل يلعب بأفئدة الشباب وعاطفتهم وقد استطعنا انقاذ عميدهم دون أن يلحقه أذى لولا كلمات نابيات أصابت الرجل وأثرت فيه . ثم أراد الشباب أن يعبر عن صادق شعوره نحو أستاذ جليل . فاجتمعوا والعميد وأعضاء هيئة التدريس والأستاذ عميد الأدب العربى وسكرتير الجامعة وبدأ خطباؤهم يعلنون التوبة والغفران وألقى هو كلمة صفح بليغة هزت مشاعرهم فبكوا .

وانتهت المسألة بسلام .

وبدأ دورى نحو المطالب فكنت أثيرها كل صباح ثم قابلت الأستاذ العميد وقلت له أن مركزى بين شباب الجامعة سيسوء وسيعرفون أننى لم أقصد سوى تهدئة الحالة . وإن لهؤلاء الشبان

مطالب بعضها واجب التحقيق على الفور. وبعضها الآخر يستأهل التريث والتأنى وأخشى أن تحدث ثورة أخرى. فتأتى بأسوأ النتائج. وأخذت أردد مثل تلك المعانى واتفقنا على أن نقابل وزير المعارف بوصفه الرئيس الأعلى للجامعة وأعرض عليه وجهة النظر هذه.

قابلناه فأقرنا عليه ووافقت الحكومة على المطالب العاجلة ووعدت بدرس بقيتها واتخاذ قرار فيها على وجه الاستعجال.

وحلت القضية على هذا النحو.

واستهدفت مرة أخرى لخطر أشد وأنكى. فقد اعتصب طلبة مدرسة الهندسة التطبيقية وذهب إليهم وكيل المعارف فحاصره الطلاب وقطعوا المواصلات التليفونية بين المدرسة وخارجها.

وأقسموا أنهم معتدون عليه لو دخل البوليس حرم المدرسة فاكتفت القوة بالوقوف خارج الأسوار إلى أن تتدبر الأمر.

وما كدت أصل إلى الباب حتى استوقفنى قائد القوة وخشى أن أكون فى صف الثائرين فأفهمته أن وكيل الوزارة صديقى وأن أمره يهمنى جداً. فأفهمنى صعوبة الوصول إلى الباب العمومى لأن الطلاب فى حالة عصبية شديدة وانهم متسلحون بقطع حديد قاتلة.

قلت لا تخش شيئاً . والغاية الشريفة المخلصة كفيلة بأن تنجى الإنسان من الخطر .

كانت هتافاتهم تصم الآذان . ولها دوى الرعد وهزيمه .

وما كان أحدهم يرى مقبلا على دار معهدهم حتى ظنوا به السوء وأخذوا يرجمونه بالحجارة وقطع الحديد الحادة . فعمدت إلى منديل أبيض ورفعته ثم نشرته فى الهواء . فسمعت تصفيقاً فى فناء المعهد . ومن حسن حظى المطلق أن زعيمهم قد سبق له أن تردد على مكتبى وكان يرفع لى مطالبه وأحس فى عدالة نحو القضية التى يثيرها . وما كدت أدخل الباب حتى تقدم منى عشرات منهم ورفعونى فوق أكتافهم وهم يهتفون بحياة الصحافة الحرة .

رأيت أن أقف على مطالب هؤلاء من فم زعيمهم وكان شاباً ملفوف الساعدين قوى البنية مكتنز اللحم ربع القامة . قال إن البوليس قد تحرش بهم وحاصر معهدهم وأنهم قد باتوا بدار المدرسة دون أن يتلقوا طعام الظهر ولا العشاء ولا الفطور . ثم مال بجسمه نحو الأرض . وامتدت يده نحو الحشائش وجذب منها حزمة وأخذ يلتهمها على هيئة عجيبة . وقال « بتنا ليلتنا على هذا الغذاء » .

وقفت منه على قضيتهم . ثم قابلت وكيل الوزارة وكان

يجلس فى مكتب الناظر ومعه بقية أعضاء هيئة التدريس . وما كاد يرانى حتى تشجع وسألنى عن الأخبار فى « أرض الوطن » .

كان ينطق « أرض الوطن » وعلى فمه ابتسامة لها دلالات ومعانى كثيرة . غـير انه كساها جميعاً بثوب من الهدوء وعدم الإكتراث وإن كانت الصفرة تذهب فى وجهه مذاهب شتى .

قلت له « دعك من هذا كله وأترك أرض الوطن وما عليها . والآن . لا بد من انسحاب القوة حالا وأنا كفيل بالمفاوضة . وأن الأمور تسير سيراً عاديا » .

كان من أشق الأمور أن يتصل أحد ممن فى المدرسة بالخارج . والطلاب من ناحية يرفضون الترخيص لمن فى الداخل بالخروج . والقوات المحاصرة تنتظر الأوامر . غير أننى مضيت فقلت سأتصل برئيس القوة المرابطة أو بالمسئولين فى الداخلية ذلك أن حياة وكيل المعارف لها قدرها وخطرها . وما تجدى أرواح كثيرة تقتل تلقاء خطر يستهدف له أحد الذين تضمهم هذه الحجرة .

ما كدت أخرج من الباب العام . حتى تلقانى عشرات الجنود وقد رفعوا عصيهم الغليظة فى الهواء . وبينها وبين رأسى أقل من نصف متر . فصرخت فى الجنود صرخة عسكرية أن قلت تقهقر فأنا سكرتير عام الداخلية فأدوا التحية الواجبة .

ثم قلت « أين رئيس القوة » .

جاء رئيس القوة واختليت به . وأبلغته ما انتهى إليه الرأى . وكان أن رجعت القوات فى حذر إلى أحد الطرقات البعيدة . وما كادت تتحرك فى سبيل الانصراف حتى هدأت الحالة وخرج وكيل المعارف . وذهب من توه إلى مكتبه . ثم بدأت أحمل أمانة الدفاع عن هؤلاء الطلبة فقد كانت الحكومة حريصة على إحقاق الكثير منها فتم ذلك على أسرع وجه .

* * *

وسر المهنة قدسى مفروغ منه . والصحفيون يعرفون ذلك جميعاً . ويضنون بإذاعة شىء عنه . غير أنهم فى بعض الحالات يرون أن من الجريمة الاحتفاظ إن رأوا بريئاً يضار من وراء ذلك . على أن تقدير ذلك مرجعه الضمير الصحافى الشريف النبيـــل .

وكلت إلى صحيفة منذ سنوات بعيدة أن أقابل وزير الداخلية فى ذلك الحين إذ يرغب فى أن يدلى بحديث عن اعتصاب عمال كان له أثر بعيد فى الدوائر المصرية والأجنبية المختلفة . وكان رئيساً للحكومة إلى جانب عمله فى الداخلية . ورأيت الوزراء يدخلون عليه حيث يعرضون عليه شئون الدولة . وكنت قد انتحيت مكاناً فى الغرفة قصيا . ثم أقبل أحد الوزراء وأسر إليه برقم عن احصاء معين له شأن فى السياسة المالية للبلاد . فى اذاعة هذا الرقم

قبل أن يعلن بصفة رسمية خطورة كبيرة على البلاد . ويتمنى الكثيرون أن يعرفوا عنه شيئاً قبل إعلانه . فدسست يدى فى جيبى وأخرجت منه علبة السجاير وكتبت الرقم عليها ثم استدعانى الوزير وأدلى إلى بالتصريح الذى يرغب فى اذاعته .

ولما عدت إلى مكتبى أبلغت صاحب الجريدة ما حدث ورأينا أن ننشر رقماً تقريبياً عن الإحصاء . وقد اهتزت دوائر الحكومة لذلك وعرفت أن الرقم الصحيح لا بد أن يكون بتمامه معروفاً لدينا . وكان أكثر الناس ثورة الوزير المختص وقد استدعيت وبدا وزيران يسألان عن مصدر الخبر . فكنت أقول سر المهنة . وفى المساء ألقى القبض على موظف برئ . وشاهدت زوجاً تبكى وتتألم . وأطفالا صغاراً هزهم غياب الوالد . فتقدمت فى هذه اللحظة إلى المحقق وقلت له أقسم لك أن هذا الرجل برئ . وأن الذى مدنى بالخبر هو معالى الوزير المختص . فوقف التحقيق وقابلت رئيس الحكومة والوزير المختص وشرحت لهما كيف التقطت الخبر منهما وهما يتهامسان به .

وهناك حادث مماثل لصحفى قديم يتلخص فى أن مصر كانت مشغولة بإدخال نظام القضاء المختلط على نظمها القضائية . فوكلت وزارة الحقانية إذ ذاك لمصرى ترجمة المشروع إلى اللغة العربية وبعد أن انتهى من نسخه أخذ يراجعه وقد رفع الأوراق

بين يديه وهو يقرأ حرصاً منه على ألا تقع عين أحد عليه . وكان يجلس أمامه الصحفى القديم وبعد أن فرغ من تلاوة المشروع انصرف الصحفى . وفى الصباح كان ملخص واف له منشوراً فى صحيفته .

اهتزت الدوائر الأجنبية لهذا العمل ثم شرعت فى إجراء تحقيق واسع النطاق . كان أول من سئل فيه هو الصحفى وكان جوابه سر المهنة ثم اتجه الرأى أخيراً إلى ادانة الموظف الذى أؤتمن على المشروع ولم يكن هناك مناص من ذلك . وقد رأى الصحفى أن يتقدم إلى المحققين وأن يدلى إليهم بما خفى ودق .

قال لهم إنه قد نقل المشروع من الرجل البرئ وهو يراجعه وكانت خلف ظهره مراة وهو قادر على نقل ما يظهر على المراة من كتابات لدقة النظر وطول التجربة .

كانت قصته أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة غير أنها جربت أكثر من مرة أمام المحققين فأخلى سبيل الموظف ثم ظل يترقى فى سلك الوظائف بعد ذلك إلى أن وصل إلى وظيفة وكيل الحقانية .

وهناك طرائق كثيرة فى هذا الصدد يحتفظ بها كل صحافى لنفسه ويحرص على مصادره كل الحرص غير أن أمر سر المهنة موكول بالظروف والتقدير العام للصحافى فى بعض الحالات

يلقى الصحفيون ضروب العنت والشدة وهم لا يبيحون بشيء عن سر المهنة . وهم فى حالات أخرى يتقدمون من تلقاء أنفسهم فيدفعون ذنباً عن برئ . وجرماً عن مظلوم .

للكتابات المطبوعة صوفية فى العقول والأرواح وأن الإنسان ليتفاعل مع هذه الكتابات كلما أمعن النظر فيها وما تضمه الصحف من أنباء أكثر تفاعلا من تلك التى يلتقطها من الأفواه أو يسمعها عن طريق الإذاعات اللاسلكية . وان أبن المهنة الأمين ليقدر هذا الجانب النفسانى وما له من أثر فى النفوس والعقول فيحرص على أن يقدم لقارئه الصحيح من الأنباء والدقيق من الآراء .

نعم إن للمهنة مياها آسنة راكدة لها رائحة تزكم الأنوف تعيش عليها طحالب تسئ إلى اللالىء الغائصة فى جوف المحيط الزاخر القائم عن بعد . ولكنها طفيليات يتعرفها الناس ويقفون على موضع الخطر منها وقد حددت مجلة نقابة الصحفيين فى فرنسا تعريف الصحفى دون الطفيلى فدونت على غلافها العبارة التالية « إن الصحفى الجدير بهذا الاسم يأخذ على عاتقه تبعة كل كتاباته حتى ولو كانت غفلا من الإمضاء . فيعتبر الطعن والتشهير والقذف والاتهامات التى لا دليل عليها من أشنع أخطاء الصنعة . وهو لا يقبل إلا المهمات التى تتفق مع كرامة المهنة .

ويمتنع عن ادعاء لقبٍ أو انتحال صفة ليحصل على الخبر وهو لا يأخذ مالا من عمل حكومى أو فى منشأة خاصة يمكن أن تصبح فيهما صفته الصحفية أو علاقاته أو يصبح نفوذه عرضة للاستغلال . وهو لا يوقع باسمه مقالات للاعلان التجارى أو المالى البحت وهو لا يرتكب سرقة أدبية ولا يسعى فى أخذ مركز زميل له ولا يعمل على فصله بأن يتقدم للعمل بشروط أدنأ وهو يحفظ سر المهنة ولا يسىء استعمال حرية الصحافة بقصد مغرض » .

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة يجد فيها كل طالب وطالبة فى جميع مراحل النمو المتعة والثقافة وسمو النفس . فهى تذكرة للآباء بمطالب أبنائهم ، وتبصرة للأبناء بفضل آبائهم عليهم .

ظهر منها :

١ عمرون شاه	١٢ قرشاً
٢ مملكة السحر	١٢ قرشاً

يظهر قريباً :

٣ كريم الدين البغدادى

٤ آلة الزمان

إخراج أنيق • ورق فاخر • رسوم فنية



دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك